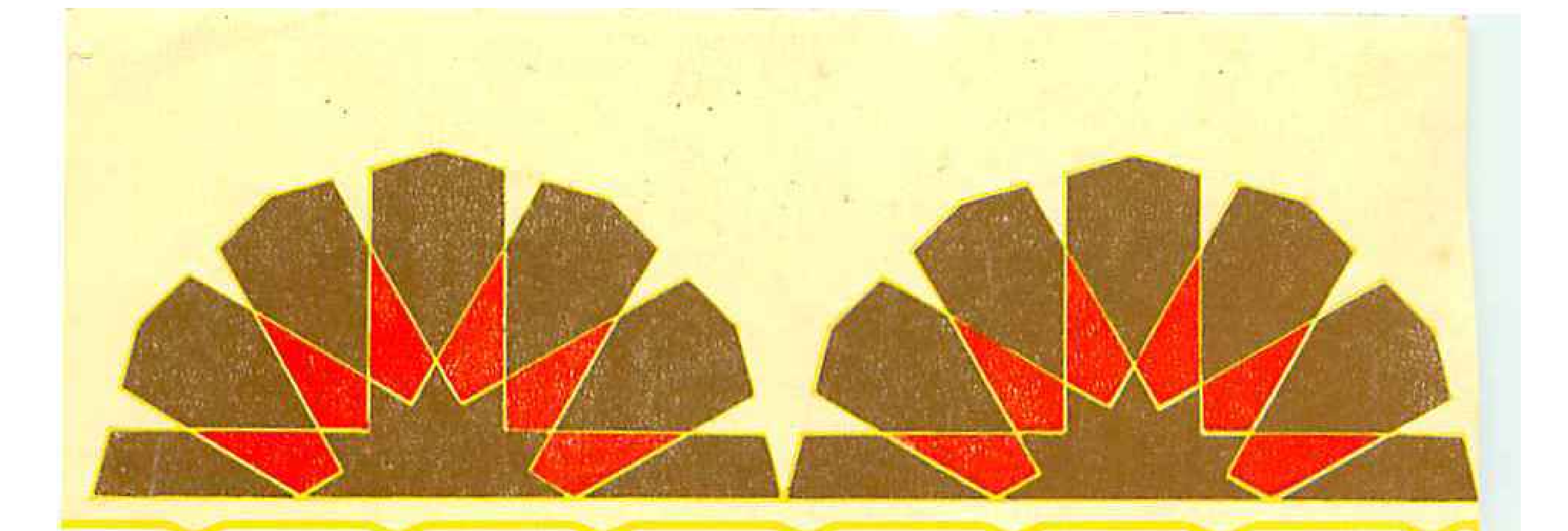


وحيد الدين خان



ترجمة : ظفر الإسلام خان




حقيقة الحاج

وحيد الدين خان



ترجمة : ظفر الإسلام خان



الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧



مقدمة

حمدًا لله وشكرًا ...

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وإمام المتقين .

وبعد ...

فهذا كتاب فى (حقيقة الحج) ، كتبه كاتب هندى مسلم كبير عرفه العالم العربى من خلال بعض أعماله التى قوبلت باستحسان ، وعلى رأسها كتابه المعروف (الإسلام يتحدى) ...

أما المسلمون فى شبه القارة الهندية – جمع الله كلمتهم وأعزّهم – فيعرفونه جميعًا ، ومعظمهم يقرأون له مجلته الذائعة (الرسالة) سواء اتفقوا أم اختلفوا معه .... ! !

واليوم يقدم المؤلف الكبير الأستاذ (وحيد الدين خان) كتابه (حقيقة الحج) للمشتغلين بالدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية وللباحثين عن فهم عميق وواع للحقائق الإسلامية ....

فهذا الكتاب – الذى لا تزيد صفحاته عن مائة صفحة على حد التقريب – وقفة عميقة متأنية عند الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ....

إن هذه الوقفة لا تأخذ مكانتها وتميزها من جانب أنها دراسة ملمة بالجوانب الفقهية بطريقة عميقة أو شمولية . كلا ... فالجوانب الفقهية فى هذا البحث هى

الجوانب المذكورة فى كل كتب الفقة بطريقة مبسطة وواضحة ... والمتخصصون فى الفقة قادرون ــ بالتأكيد ــ على أن يقدموا دراسات فقهية فى الحج أكثر إلمامًا وشمولا وتحليلا ... وترجيحًا ... واستقصاءً ! !

ولم تأخذ هذه الدراسة مكانتها من جانب أنها تاريخ موسوعى شامل للحج منذ إبراهيم عليه السلام وحتى اليوم .. فثمة دراسات تاريخية استقصت تاريخ الرحلة إلى الحج ، ووقفت عند المعابر الكبرى لتاريخ الحج ، بطريقة أشمل وأعمق مما قدمته هذه الدراسة ! !

لكن هذه الدراسة ــ مع ذلك ــ دراسة متميزة من جوانب أخرى كثيرة لا نعتقد أنها تقل أهمية عن الجانبين الفقهى والتاريخى ...

لقد ركزت هذه الدراسة على جانب يفتقده المسلمون فى كثير من الدراسات الإسلامية ، وحتى الذين يحاولون معالجة هذا الجانب فيما يدرسون قد لا تتوافر لديهم القدرة على النجاح فى المعالجة .... فما كل غواص قادر على صيد اللؤلؤ والوصول إلى الأعماق ....

لكن هذا البحث ، وهذا الباحث ، قد نجحا ــ إلى حد كبير ــ فى معالجة هذا الجانب ، وفى الوصول إلى الأعماق ... إن جانب (الروح) أو (الحقيقة) هو الجانب الذى يتفرد به هذا البحث ... فروح الحج ، أو حقيقة الحج ... هو المحور الذى يدور حوله البحث ، وما الجوانب الأخرى فى الحقيقة إلا وسائل لكشف هذه الروح ، أو لعلها لا تزيد عن كونها عناصر من عناصر هذه الروح ...

ومن هذا المنطلق، ووصولا إلى هذه الغاية ، عالج الباحث (رسالة الحج) ، ونظر إليه على أنه (صانع التاريخ) وعلى أنه (مؤسسة دعوية) و (وسيلة للوحدة) و (رحلة غير عادية) قادرة على (تجديد الإيمان) ! !

ودعا الباحث إلى توظيف إسلامى للحج فى سبيل تحقيق الوحدة الدعوية

والفكرية والشعورية للمسلمين ، أو حسب تعبيره « تنظيم جديد للحج » ... ومن سبل هذا التنظيم الجديد – فى رأيه – تسخير الحج كمركز للتخطيط العالمى للدعوة الإسلامية بحيث يعرض الناس من مختلف البلاد أحوال الدعوة فى بلدانهم فيطلع الناس على تجارب المناطق الأخرى ويستفيدون منها ، ويدور الحوار حول الإمكانات الجديدة للدعوة ، إذ المعروف من دروس التاريخ أن قوة الإسلام كانت مرتبطة بقوة الدعوة ، والحج وبيت الله الحرام علامتان على خطة دعوية عظيمة ، فإنما بنيت الكعبة فى الصحراء لتكون مركزًا دائما للهداية الإلهية ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُباركًا وهدى لِلعالَمين ﴾ وذلك بعيدًا عن شوائب الحضارات ونفايات المدنيّات والفلسفات .... وفى عصرنا الحديث ، وبعد أن فتحت الثورة العلمية – التى هى إسلامية الأصل – إمكانات جديدة هائلة للدعوة يمكن أن تستخدم مؤتمر الحاج العالمى للتخطيط للدعوة على مستوى العالم أعظم من أى وقت مضى ، فنجعل منهج الفكر الإسلامى هو المنهج الفكرى الغالب على العالم مرة أخرى كما كان فى العصور الماضية ..

لكن ذلك رهن شرط ضرورى – فى رأى المؤلف ونحن معه – فهذا الشرط هو الأساس لتحويل مؤسسة الحج – حسب تعبير المؤلف – إلى مؤسسة عالمية للدعوة الإسلامية ...

إن هذا الشرط خلاصته (إبقاء فريضة الحج بعيدة عن السياسة بصورة كلية) فينبغى أن ننظر إلى المسلمين الذين يتجمعون للحج من زاوية أنهم جاءوا لأداء هذه الفريضة وحدها .. والطريق الصحيح للاستفادة من الاجتماع فى هذه الفريضة أن نبعث فى الناس روح الدعوة لكى يعودوا إلى بلدانهم دعاةً إلى دين الله بدلًا من أن ينشروا هناك دعايات سلبية ضد بعض المسلمين(! !)

ويحكى المؤلف تجربة حجّة (سنة ١٤٠٢) وكيف اشتبك معه ناس يوزعون

منشورات تسبح بحمد رئيسهم ومنشورات أخرى تهاجم دولًا ورؤساء آخرين.. ولما قال لهم : إنكم تضيعون وقتكم الثمين وتسيئون استخدام أيام الحج أيضًا ... أخذوا يتجادلون معه ــ بحدّة لا تليق بأخوة المسلمين فى الحج ــ ثم انصرفوا غاضبين ! !

* * * * *

وقد عالج المؤلف معنى من أدق المعانى فى الحج بطريقة توجب الوقوف عنده ... إن هذا المعنى هو المعنى التاريخى للحج ، فالمسلمون حين يقومون بمناسك الحج إنما يعيدون ــ بطريقة عملية حيّة ــ التاريخ الإيمانى الإبراهيمى على الأرض ، فيفارقون أوطانهم كما فارق إبراهيم الخليل وطنه ، ويمرون بكل ما مرَّ به إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام) إلى أن ينتهوا إلى التلبية « لبيك اللهم لبيك » فى اجتماع عرفات الأعظم ، ثم يرجمون الشيطان كما رجم إسماعيل ... فكأن الحاج يقول لله تعالى من خلال هذه الشعائر (الأشياء الرمزية) إنه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى فإنه مستعد لكى يسير على نفس خطوات إبراهيم حتى ولو ذبح ابنه ! !

إن تكبير الحاج (الله أكبر ... لا إله إلا الله ... الله أكبر) من شأنه توليد نفسية معينة فيه ليعى أن العظمة لله وحده ، وكل جوانب العظمة الأخرى يجب أن تنحنى أمام عظمة الله الكبرى .

وإن طواف الحاج حول الكعبة إنما هو إقرار عملى بأنه سيجعل نقطة واحدة محور كل جهوده ، وسيتحرك فى دائرة محددة . هى دائرة الحنيفية السمحة ، كما تطوف كل سيارات النظام الشمسى حول مركز واحد هو الشمس ! !

والسعى بين الصفا والمروة يعلمنا أن يكون مسعانا داخل حدود معينة ، دون أن نتجاوز أو نتفلت بعيدًا عن دائرة إخواننا المؤمنين الآخرين ! !

○ ○ ○ ○ ○

وهكذا يدور المعنى التاريخى الحى فى الحج مع كل الشعائر ، كما أن (المعنى الاجتماعى) يدور مع هذه الشعائر أيضًا ، وكما أن (معنى الوحدة) يدور كمعنى أساسى من معانى الحج البارزة ....

وقد أحسن المؤلف تصوير معنى الوحدة كما أحسن تصوير المعنى التاريخى ... فالذين يتخذون من الكعبة قبلة ليسوا هم من يصلّون فى المسجد الحرام فقط ، بل المسلمون جميعًا فى شتى أقطار الأرض يتخذون من الكعبة قبلة لهم أيضًا ... وهم يقفون فى كل أنحاء الأرض خمس مرات كل يوم حول الكعبة من جوانبها الأربعة ... أى أن المسلمين يقيمون حولها دائرة كاملة على وجه الأرض ، فتكون الكعبة هى الوسط بينما المسلمون يؤدون صلواتهم حولها فى دائرة من كل ناحية على وجه البسيطة .

وهذه ناحية اجتماعية عظيمة لا مثيل لها فى أية جماعة دينية أو غير دينية فى العالم ... ولو كان فى المسلمين شعور حقيقى فوعوا هذا الدرس لوقعت النهضة الحقة ولانضموا جميعًا – بعيدًا عن عوامل التمزق – إلى هذه الهيئة الاجتماعية العالمية المقدسة ....

إن الكعبة – بحق – هى رمز توحيد الله على الأرض ... وأيضًا : هى رمز وحدة المسلمين وهيئتهم الاجتماعية ! !

○ ○ ○ ○

ولم يغفل المؤلف الجوانب العاطفية فى الحج ... فالحج – إلى جانب ما ذكرنا – علاقة بالله ، وشعائر تصل ما بين الخالق والمخلوق ، ورحلة إلى الله ... لاستئناف المسيرة على هدى وبصيرة .. وهو عطاء بقدر عفو الله لا بقدر عمل الناس ، وهو تجديد للإيمان ، وهو تحقيق للتقوى والعفة والأخلاق

الفاضلة، وتدريب على تجنب الثرثرة والرفث والمراء والعنف، وتعويد على الانضباط وإنكار الذات ، والاندماج فى الجماعة ! !

° ° ° °

إن (حقيقة الحج) حقيقة عظمى بلا ريب ! !

ولقد نجح المفكر الكبير (وحيد الدين خان) فى تجلية كثير من جوانب هذه الحقيقة بأسلوبه الرائع ، وبثقافته العميقة الأصيلة والعصرية فى سياق واحد ... وقد لا نكون ميالين كثيرًا إلى ما أورده المؤلف عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، من أنه عندما حج قال : « أيقنت أن الحج أفضل العبادات » ، فلسنا نرى ذلك إلا بتأويلات كثيرة لكننا – مع ذلك – نرى أن المؤلف قد استطاع أن يجسّد لنا معانى كثيرة فى الحج تجعل القارئ يشعر بأن الحج (رحلة العمر) وأنه (من أفضل العبادات) ، وأنه تذكير عظيم بقصة التوحيد ، وبرحلة الحنيفية السمحة على الأرض ، وبأنه – لو فهم حق الفهم – سبيل عظيم لتحقيق وحدة المسلمين ، ولازدهار الدعوة الإسلامية فى العالم ، ولتحقيق سبل التقدم الإسلامى الشامل ... ولإعادة المسلمين إلى مكانتهم الصحيحة فى الحضارة .... مكانة الأمة الوسط ... الأمة الشهيرة على الناس ... خير أمة أخرجت للناس ... أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... أمة الوحدة والتوحيد ..

ظفر الإسلام خان

الفهرس

مقدمة	٥
الفهرس	١١
الفصل الأول : روح الحج	١٣
مسيرة نحو الله	١٦
سيد العبادات	١٧
رسالة الحج	١٨
بعض الجوانب	٢٠
حج مبرور	٢٣
قضية فى حاجة إلى نظر	٢٣
الفصل الثانى : الحج صانع التاريخ	٢٥
الفصل الثالث: أهمية الحج فى الدعوة	٣٥
تاريخ الحج	٣٧
الحج مؤسسة دعوية	٤٠
الحج وسيلة للوحدة	٤١
الحج عمل حىّ	٤٢
تنظيم جديد للحج	٤٣
شرط ضرورى	٤٦
الفصل الرابع : الجانب العاطفى فى الحج	٤٩
شهادة علم الإنسان المعاصر	٥١
شعائر الله	٥٣
علاقة بالله	٥٦

الراحة فى المعاناة ٥٨
رحلة غير عادية ٥٩
العطاء بقدر الكفاية ٦٠
بعض الانطباعات ٦١
تجديد الإيمان ٦٣
الفصل الخامس: **الحج والوحدة** ٦٥
المركز العالمى للتوحيد ٦٧
إعلان عام ٦٨
أسلوب فطرى ٧٠
اجتماعية الحج ٧١
تاريخ الحج ٧٣
مركز الوحدة ٧٥
الفصل السادس: **دروس التقوى والعفة** ٧٩
مزيد من الاهتمام ٨٢
الحذر فى الكلام ٨٣
اجتناب العنف ٨٤
حياة الانضباط ٨٥
إنكار الذات ٨٥
الفصل السابع: **حج رسول الله** ٨٧
دروس ٩٨
خطبة حجة الوداع ١٠٢
الفصل الثامن: **مسائل الحج** ١٠٧
زيارة المدينة المنورة ١١٢
محظورات الحج ١١٣
ترتيب مناسك الحج ١١٤
مصطلحات الحج ١١٥
آثار إسلامية ذات معان تاريخية ١١٨

الفصل الأول

روح الحج

الفصل الأول

روح الحج

الحج ركن أساسى من أركان الإسلام وروحه الأصلية هى التقوى كسائر العبادات الأخرى .. إلا أن للحج نوعية خاصة ينفرد بها وهى أنه يعود فى أصله إلى حياة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وهدف الحج هو أن يصل كل عبد من عباد الله إلى مقامات الحج مرة واحدة على الأقل فى حياته ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، فيقدّم هناك دليلا على عبوديته الكاملة لله ، بمختلف الأعمال والشعائر ، وبالتالى يحاول أن يصبغ ظاهره وباطنه بالصبغة الإبراهيمية الحنيفية السمحة .

وكان إبراهيم عليه السلام قد نادى فى الناس بعد بناء الكعبة بأن يأتوا ويحجوا لبيت ربهم .. ورحلة الحج هى تلبية هذا النداء الإبراهيمى ، وأصوات « لبيك اللهم لبيك » التى نسمعها فى الحج هى ردنا على ذلك النداء الإبراهيمى ، فهى تعنى أن الحاج قد لبى النداء الإبراهيمى فجاء يحج لله مؤكدا بعمله هذا أنه مستعد استعدادا كاملا لتنفيذ كل أحكام الله .

ويعنى الحج — لفظا — القصد أو الزيارة ، وهو يعنى فى المصطلح الإسلامى الشعيرة السنوية التى تتمثل فى قصد المسلم مكة المكرمة فى الوقت المحدد ليطوف حول الكعبة ويقيم فى ميدان عرفات ويأتى أعمالا أخرى معروفة بمراسم أو شعائر الحج .

والحج عبادة جامعة ، ففيه إنفاق المال ، ومشقة الجسد ، وذكر الله ، والتضحية فى سبيله .. فالحج عبادة تشمله روح كل العبادات الأخرى بصورة أو أخرى .

ومركز أداء فرائض الحج هو بيت الله فى مكة المكرمة . ويذكرنا هذا البيت الإلهى بحياة إيمانية عظيمة عاشها عباد من أصلح عباد الله على وجه الأرض ... فهى تبدأ بتاريخ إبراهيم خليل الله وتنتهى بتاريخ نبى آخر الزمان محمد

صلى الله عليه وسلم . وبيت الله يذكرنا كيف يضحّى عبد من عباد الله بكل ما لديه فى سبيل ربه ، وكيف يصوغ حياته طبقا لمرضاة الله وحده ، وكيف يسخر نفسه لأجل الرسالة الإلهية إلى أن تحين منيته ...

مسيرة نحو الله

والحج مسيرة العبد نحو الله ، وهو منتهى القرب الذى يمكن أن يسمو إليه العبد من ربه فى هذه الحياة الدنيوية . فالعبادات الأخرى ذكر الله بينما الحج أبعد من ذلك قربًا .... ! ! وإذا كانت العبادات العامة عبادة الله على مستوى الغيب فالحج عبادة الله على مستوى الشهود ..

وعندما يقف الحاج أمام الكعبة فهو يشعر أنه واقف أمام رب الكعبة نفسه . والطواف حول الكعبة مظهر لحقيقة أن العبد « يجد » ربه فيطوف حوله طوافَ الفراشة حول القنديل .. وعندما يمسك العبد بالملتزم ويدعو فكأنه أمسك بطرف من ربه فالتف به التفافا وهو يريد أن يقول له كل ما فى أعماقه .

ويتمتع الحج بكل هذه الخواص لأن شعائره تؤدى فى مكان تنزل فيه التجليات الإلهية ، وهو المكان الذى اختاره الله ليكون مركز الرسالة الدينية لأعظم داعٍ إلى حياة العبودية الكاملة لله وهو إبراهيم عليه السلام .. وهذا هو المكان الذى وقعت على ترابه الأحداث التى صاغت تاريخ بدء الإسلام .. وتنتشر حوله آثار الدعوة الربانية المثالية التى تحققت قبل ١٤ قرنا بقيادة خاتم النبيين وآخر المرسلين .

وقد اكتسبت ديار الحرم أهمية غير عادية بسبب مثل هذه التقاليد والخصائص ، فظهرت بها بيئة روحانية وتاريخية من نوع خاص فلا يبقى شخص يزورها إلا ويتأثر بها أعمق التأثر . وهو يعود بعد الحج كما يعود شخص قذر بعد أن يستحم فى مياه نهر صاف .

ويتمتع الحج بأهمية غير عادية بين العبادات الإسلامية . وقد وصف الحج فى أحد الأحاديث بأنه « أفضل العبادات » .. وهذه الأهمية الخاصة هى فى « روح » الحج وليس فى « مظاهره » . وبكلمة أخرى ليس الحج أن يذهب واحد منا إلى ديار الحرم ثم يعود ، بل الحج هو أن يتمتع الحاج بالكيفيات التى من أجلها فرضت هذه الفريضة . فكون الحج « أفضل العبادات » يعنى أنه سيكون أفضل عبادة للعبد الذى يؤدى شعائره بروحه الحقيقية وآدابه الصحيحة . فالطعام يعطى القوة لمن يأكله ، إلا أن أفضل الأغذية لن تفيد من لا يأكلها بل يكتفى بالنظر إليها أو يفرغها فوق رأسه .. وهكذا لن يفيد الحج فائدة حقيقية إلا من يقوم بما ينبغى له بالفعل أن يقوم به فى الحج .

سيد العبادات

الحج – كما ذكرنا – لقاء بالله تعالى .. وتطرأ على الحاج كيفيات ربانية من نوع خاص عندما يصل إلى مقامات الحج بعد تحمل مشاق السفر . وهو يشعر كأنه انتقل من دنياه إلى الدنيا الإلهية ، كأنه يلمس ربه ، ويطوف حوله ، ويسعى إليه ، ويسافر من أجله ، ويقدم القرابين (الهدى) أمامه ، ويرمى بالجمرات أعداءه ، ويسأله كل ما كان يتمنى أن يسأله ، ويظفر منه – بمشيئة الله – بكل ما كان يتمنى أن يحصل عليه .

والكعبة علامة من علامات الله على وجه الأرض . فهناك تأتى الأرواح البشرية الضالة لتسكن فى رحاب ربها . وهنالك تتفجر عيون العبودية من الصدور المتحجرة . وهنالك تشاهد العيون المظلمة تجليات الله .. ولكن هذا كله يحدث للذى يذهب مستعدا وباحثا . أما الذين لم يستعدوا فحجهم لن يعدو أن يكون أكثر من سياحة . فهم لا يذهبون هناك إلا لكى يعودوا كما ذهبوا .

وقد قال رسول الله : « الحج عرفة » أى أن الحج هو القيام فى ميدان

عرفات . وهذا يدل على أهمية عرفات فى شعائر الحج .. فميدان عرفات فى أيام الحج يقدم منظرا تمثيليا لميدان الحشر . فنشاهد أفواجا بعد أفواج من عباد الله يأتونه من كل حدب وصوب فى يوم معين .

وما أغربه من منظر .. فعلى كل الأجساد لباس بسيط من نوع واحد . لقد فَقَد الكلُّ صفاته المميزة .. وكل الألسنة تردد كلمة واحدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك اللهم لبيك » . ويتذكر الناظر الذى يشاهد هذا المنظر تلك الآية القرآنية التى تذكرنا بيوم الحشر : ﴿ ونُفِخَ فى الصُّور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾[1] . فحضور عرفات يهدف إلى تذكير العبد بمثوله أمام الله يوم الحشر ، لكى يجرى على نفسه بصورة رمزية وتصورية ما سيجرى عليه غدا .

والحقيقة أن للحج معانى تميزه بطعم خاص .. ودرجة الحج إزاء العبادات الأخرى كدرجة الكعبة إزاء المساجد الأخرى .

رسالة الحج

ما هو الحج ؟

الحج هو الخروج فى سبيل الله .. هو الوصول ببذل الوقت والمال إلى المقامات التى هى شعائر الله التى ترتبط بها ذكريات عباد الله الصالحين . وكل شعائر الحج إظهار عملى لنشاط الإنسان من أجل الله وفى سبيله .. فتطوف حياته حول الحقائق العليا ، وهو يصادق أولياء الله ، ويعادى أعداءه ، ويُجرِى اليوم على نفسه كيفيةَ المثول أمام الله يوم الحشر ، ويصبح أخشى الناس لله وأذكرهم له ، ولا يقرّ له قرار فى سبيل تحويل الإسلام إلى حقيقة عالمية ولنشره على المستوى الدولى . والحج فى ظاهره عبادة وقتية محددة بأيام ، ولكنه فى حقيقته صورة للحياة الإيمانية بأسرها ، وهو إقرار للعبودية حتى النفس الأخير .. فالمؤمن

---

(١) سورة يس : ٥١ .

يعيش لكى يحج فى سبيل ربه ، وهو يحج لكى يعيش من أجل ربه . فالحج تعبير عن حياة المؤمن ومماته فى وقت واحد .

والحج زيارة لله تعالى وهو منتهى ما يمكن للإنسان أن يقترب من ربه فى الحياة الدنيوية ...

وقد جاء فى القرآن عن حقيقة الحج : ﴿ الحَجُّ أشهرٌ مَعلوماتٌ فمَن فرضَ فيهنَّ الحجَ فلا رفثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ فى الحَجِّ وما تَفْعَلوا من خيرٍ يعلَمْه اللهُ وتزوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزادِ التَّقوَى واتَّقونِ يا أُولى الألبابِ ﴾[1] .

ويعنى « الرفث » القول البذىء ، ويقارب معنى « الفسق » ما نقوله بالأردية إن فلانا تعرى من لباس الإنسانية ، أما « الجدال » فيعنى المخاصمة . وهذه الكلمات الثلاثة تستخدم لبيان شرور اجتماعية تقع عموما بواسطة الكلام ، كأن تجتمع مجموعة من الناس فيأتى شخص بذىء ويفسد اجتماعا رزينا بكلامه الفاحش وأحيانا يقع للبعض شىء على غير العادة فيتعرى من لباسه الوقور الظاهرى ويقول الباطل ، وأحيانا يسىء شىء ما إلى بعض الناس فلا يتحمله بل يسرع فى الخصام .

واجتماع الحج تربية عملية للابتعاد عن هذه الشرور الاجتماعية . وترتبط بمقامات الحج ذكريات القدسية والاحترام فيؤتى بالمؤمن هناك ليكتمل تدريبه على اجتناب هذه الشرور . وهو يعيش فى بيئة اجتماعية خاصة فينصرف بنفسه عن الفواحش والأنشطة السطحية إلى الأشياء الرزينة ، ويصقل مزاجه على الثبات على الحق والصلاح فى كل الأحوال ، فلا يخاصم أخاه فى الحياة الاجتماعية رغم التجارب المؤسفة التى تؤذى مشاعره .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وكلما اجتمع بعض الناس فى مكان ما أو عاشوا معا تثور شكاوى وخلافات بين بعضهم . ويقع هذا الاجتماع على مستوى عظيم فى موسم الحج لأن عددًا ضخما من الناس من مختلف الأنواع يجتمعون فى مكان واحد ووقت واحد . وتكون النتيجة أن الأذى يصيب الناس مرة بعد أخرى ، ولو بدأ الناس يخاصمون بعضهم بسبب هذه الشكاوى الفردية فسيقضى على جو العبادة ولن يتحقق هدف الحج . ولهذا حرم الجدال والخصام خلال الحج تحريما مطلقا .. وهكذا جعل الحج وسيلة لتربية المسلمين على شيء عظيم لأن الخصامْ والجدال كما يبطلان الحجَّ ، فإنهما يبعدان المسلمَ عن الإسلام فى الحياة العادية كذلك .

وكثيرا ما يحدث أن يعتبر الإنسان شيئا ظاهريا علامة على التقوى ويظن باختياره إياه أنه قد حصل على حياة التقوى وإن كان قلبه خاليا من التقوى فى حقيقة الأمر .. وهكذا ظن البعض من قدماء العرب أن عدم حمل الزاد خلال الحج علامة على التقوى فاهتموا بألا يحملوا معهم زادًا خلال الحج .. ولكن علاقة الزاد علاقة بالحاجة والضرورة ، وليست بالتقوى .

وينبغى على الإنسان أن يستعد فى مثل هذه الأمور حسب حاجته .. ولكن التقوى شيء يختلف عن هذا كله ، فعلاقتها بالقلب . فلا يقبل الله عمل شخص ما لمجرد أنه سافر فى سبيله بدون الزاد أو لأنه أخضع جسده لمشقة عظيمة لا ضرورة لها ، فالله يطلب تقوى القلب . والمطلوب من رحلة الحج أن توفر لصاحبها زاد التقوى . وهذا هو الزاد الذى سيفيده فى رحلة الآخرة .. فيجب على مسافر الحج ، وكذلك على مسافر الحياة ، أن يجتنب الأمور الشهوانية ويبتعد عن الجدال والخصام والأشياء التى لا يحبها الله .

بعض الجوانب

يشاهَد أكثر الحجاج وهم يرددون أدعية ملقَّنة أو يقرأونها من كتب وكراسات

فى أيديهم .. وإن كان هؤلاء يوفون بمقضيات الفقه الشرعية لأداء الحج إلا أن هذا النوع من تكرار الأدعية لا يفى بمتطلبات الذكر والدعاء المطلوبين فى الحج . فيجب أن تمر على الإنسان خلال الحج لمحات من الكيفيات الربانية التى وقعت على إبراهيم عليه السلام وعائلته ، فعندما يسعى الحاج ينبغى أن تفيض من لسانه أدعية كأن يقول : يا رب اجعل لى سعيى فاتحا لعيون الخير التى ترويني إلى الآخرة مثلما جعلت سعى هاجر عينا أبديا للبركة .

وقد كتب الشيخ سيد سابق أنه يستحب للحاج :

« أن يكثر من الذكر والدعاء ويتخير منهما ما ينشرح له صدره دون أن يتقيد بشىء أو يردد ما يقوله المطوفون . فليس فى ذلك ذكر محدود ألزمنا الشارع به . وما يقوله الناس من أذكار وأدعية فى الشوط الأول والثانى وهكذا فليس له أصل ، ولم يحفظ عن رسول الله ﷺ شىء من ذلك ، فللطائف أن يدعو لنفسه ولإخوانه بما شاء من خير الدنيا والآخرة »[1] .

ومسائل الحج المذكورة فى القرآن والسنة قليلة لدرجة أنه يمكن إحصاؤها فى بضع صفحات . ولكن الفقهاء وضعوا للحج مسائل لا حصر لها مما لا يمكن لشخص عادى أن يحيط بها ، تماما كما فعلوا بالنسبة إلى العبادات الأخرى . والدليل الذى يقدم تأييدا لهذه الإضافات هو أنها لتسهيل الأمر على الحجاج ، ولكن لا وزن لهذا الاستدلال ..

فالحقيقة أنه لا يمكن لأحد أن يصلى صلاته أو يحج حجه بمجرد قراءة الأحكام الفقهية . فلا يمكن القيام بهذا العمل إلا برؤيته ، ولذلك لم يفصّل رسول الله أحكام الصلاة بل قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .. وهكذا قال للناس خلال حجة الوداع : « خذوا عنى مناسككم » .

---

(١) فقه السنة : جـ ١ ص ٦٩٤ .

وهذه هى الطريقة الأصلية ، فقد أدى الصحابة صلواتهم تقليدا لصلاة الرسول ﷺ ، وقلد التابعون الصحابة وقلّد تابعو التابعين التابعين ويستمر هذا العمل إلى هذا اليوم . أما لو كان عند الناس مسائل فقهية مكتوبة مفصلة فقط فما كان بوسعهم أن يؤدوا الصلاة الصحيحة فى يوم من الأيام . ويعتبر الإمام أبو حنيفة أكبر الخبراء فى هذا المجال ولكن (وكيع) يقول : قال لى أبوحنيفة « أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك فعلّمنيها حجّام » (ذكره المحب الطبرى بالتفصيل) .

ونحو ٩٥ فى المائة من حجاج هذا الزمان من كبار السن وكثيرون منهم من الطاعنين فى السن لدرجة أنه يصعب عليهم أداء المناسك . ومن الأفضل لمثل هؤلاء أن يرسلوا من يحج بدلا عنهم . و « حج البدل » الذى راج فى هذه الأيام عن الموتى هو فى الحقيقة لمثل هؤلاء الناس . وقد جاء فى الحديث عن الفضل بن عباس أن امرأة خثعمية قالت : « يا رسول الله ، إن فريضة الله على عباده فى الحج ، أدركت أبى شيخا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم . وذلك فى حجة الوداع »[١] .

والصورة الأخرى لحج البدل هو أن يموت شخص وقد أوصى بأداء الحج عنه ، وهذه الصورة الأخرى استنباطية . وقد قال الإمام مالك : « إنما الحج عنه إذا أوصى ، أما إذا لم يوص فلا يحج عنه لأن الحج عبادة غلب فيه جانب البدنية فلا يقبل النيابة » .

والحج فرض على كل مستطيع مرة واحدة فى حياته . وقد جاء فى الحديث الشريف : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[٢] وقد ورد عن عمرو بن

---

(١) رواه الجماعة .

(٢) متفق عليه .

العاص : « لما جعل الله الإسلامَ فى قلبى أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت :أشترط ؟ قال تشترط ماذا ؟ قلت : أن يغفر لى . قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها ، وأن الحج يهدم ما قبله »[1] .

حج مبرور

يظن كثير من الناس أن « الحج المبرور » مرادف لكلمة « الحج المقبول » إلا أن الحج المبرور يعنى الحج الذى لا يخالطه إثم .. وقد قال الحسن البصرى : إن الحج المبرور « أن يرجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة » . والحقيقة هى أنه لو أديت شعائر الحج بالشعور والعاطفة الصحيحَيْن فلن يجتنب المرء المعاصى خلال الحج فقط بل سيعود وقد كره قلبه كل معصية وشر ، ورغب فى كل أنواع الخير .

قضية فى حاجة إلى نظر

ورد فى إحدى الروايات أن رسول الله ﷺ قال : « الحاج فى ضمان الله مقبلا ومدبرا » .. وهذا القول عن الحاج ليس من باب الأسرار والطلاسم ، بل هو بالمعنى النفسى المعلوم .. لقد هيأ الله بعضَ الأسباب الخصوصية فى الحج ، فما أن يعتزم شخص ما أن يخرج للحج حتى يتفجر فى نفسه ينبوع الذكر الإلهى وتتولد فيه رغبة خاصة نحو الله . وعندما يريد أحدنا أن يسافر إلى نيويورك فسيكون متجها نفسيا نحو « نيويورك » وستظل « نيويورك » مسيطرة على عقله حتى بعد أن يعود منها . وهكذا فإن الذى يعقد العزم على الحج سيشعر فى داخله بكيفيات ربانية قبل وصوله إلى الديار المقدسة وحتى بعد عودته منها .

ولكن فوائد الحج هذه ليست من النوع « الآلى » فيحصل عليها كل حاج بالضرورة .. بل يجب أن يتوفر الاستعداد المناسب لها فى نفسية الحاج .. فكل الفوائد من هذا النوع تنحصر فى استعداد المرء .. فهو يستفيد لو كان مستعدا

---

(١) رواه مسلم .

ومهيئا نفسيا ، وهو لن يستفيد رغم مروره عبر عيون النور الربانية إن لم تكن نفسيته مستعدة للنهل منها .

وقد ورد فى رواية عن أنس بن مالك : « يأتى على الناس زمان يحج أغنياء الناس للنزهة وأوساطهم للتجارة وقرّاؤهم للرياء والسمعة وفقراؤهم للمسألة » .

ورواية أنس هذه تحذرنا كثيرا .. فيجب على مسلمى هذا العصر بصورة خاصة أن يحاسبوا أنفسهم فى ضوئها ، لينظروا عما إذا كان حجهم تنطبق عليه هذه الرواية .. فليفكر الأغنياء عما إذا كانوا يحجون بروح التقوى أم لأجل النزهة ؟ وليفكر عامة الناس عما إذا كانوا يحجون للفوائد التجارية والدنيوية أم أنهم يحجون لنيل الفوائد الدينية ؟ وليتدبر العلماء عما إذا كانوا يتوجهون إلى الحج لنيل دروس العبودية أم لرفع شأنهم كزعماء وعلماء .. وليفكر عامة المسلمين كذلك عما إذا كانوا قد جعلوا حجهم للسؤال من الله أم جعلوه وسيلة للتسوّل من البشر .

الفصل الثانى

الحج صانع التاريخ

الفصل الثانى

الحج صانع التاريخ

يقال إن الإمام أبا حنيفة كان يراوده تردد فى تحديد أفضل العبادات الإسلامية .. وعندما حج قال : أيقنت الآن أن الحج أفضل العبادات ..

ومن الجوانب الخاصة بفضيلة الحج أنه يتعلق بمشروع إلهى عظيم فهو يذكّرنا بالمشروع الذى بدأ بإبراهيم عليه السلام واكتمل بمحمد ﷺ . ومناسك الحج المختلفة هى مراحل هذا المشروع الإلهى التى يعيدها الحاج بصورة رمزية . فالحاج يفارق موطنه متجها إلى الحجاز كما كان إبراهيم عليه السلام قد خرج من العراق متجها إلى الحجاز . ويتخلى الحاج عن ملابسه العادية ويلفّ حول جسده رداءين ، وهذا اللباس ـ الإحرام ـ مماثل للباس البسيط الذى كان إبراهيم وإسماعيل يرتديانه . وعندما يصل الحاج مكة ويطوف حول الكعبة فهو يقلّد الطواف الذى قام به إبراهيم وإسماعيل توثيقا للعهد الإلهى . وعندما يسعى الحاج سبع مرات بين الصفا والمروة فهو يقلّد سعى هاجر بحثا عن الماء فى الصحراء . وعندما يذهب الحاج إلى منى وينحر قربانه فهو يعيد بصورة رمزية ما فعله إبراهيم حين استعد لنحر ابنه ثم نحر نعجة بأمر ربه . وعندما يتوجه الحاج إلى الجمرات فيرمى الشيطان بالجمار فهو يكرر عمل إسماعيل عليه السلام الذى رمى الشيطان بالجمرات عندما حاول أن يغويه . ثم يجتمع كل الحجاج بميدان عرفات .. وهذا هو الشكل النهائى لكلمات « لبيك اللهم لبيك » التى يردّدها كل حاج . وهنا يجتمع كل الحجاج فى ميدان واحد مفتوح فيعاهدون ربهم عهدا جماعيا بأنهم سيظلون ينفّذون فى حياتهم القادمة ما تعلموه خلال الحج وأنهم

سيعيشون مقلّدين حياة أولئك الأبرار الذين يؤدى الحج تذكارا لهم . وقد وصف القرآن مناسك الحج بالشعائر أى العلامات .. وهى كلها الوقائع التى وقعت لإبراهيم وأسرته خلال تنفيذ الخطة الإلهية التى سبق ذكرها . ويقلّد الحاج هذه الوقائع بصورة رمزية ويعاهد ربه بأنه – هو الآخر – سيصبح جزءا من هذا التاريخ .

فالحاج يعاهد ربه بأنه لو طرأت الحاجة فإنه سوف يحطّم حياته القائمة ليتقدم نحو الحق ، وأنه سيرضى بترك الراحة والرفاهية واختيار القناعة والبساطة ، وأنه سيسعى من أجل الله ، وسيطوف حوله ، وأنه سيرمى تقاليد الشيطان بالجمار ، وأنه سيدور حيثما دار به دين الله وسيستسلم لكل ما يقتضيه هذا الدين . فالحاج يقول لله تعالى بلسان عمله وحاله : إنه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى لأجل الدين فإنه مستعد لكى يذهب إلى منتهى ما يمكن أن يذهب إليه أحد من البشر وهو أن « يذبح » ابنه ابتغاء مرضاة الله .

وكانت رحلة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى مكة والوقائع التى وقعت هنا بعد مجيئه خطة إلهية عظيمة الشأن بدأ تنفيذها قبل نحو ٢٥٠٠ سنة . وخلاصة هذه الخطة أن الشرك كان قد غلب على الفكر البشرى منذ نحو خمسة آلاف سنة لدرجة أن شعبة ما من شعب الحياة لم تكن تخلو من أثر الشرك . واستمر هذا الحال جيلا بعد جيل ، وكانت النتيجة أن قام تسلسل فكرى للشرك عبر الأجيال المتعاقبة . وكل مولود فى تلك الأزمنة كان يرث عقلية الشرك وينشأ عليها وهذا هو السبب فى أن نداء الأنبياء بالتوحيد لم يكن يؤثر فيهم كثيرا .

وهنا وضع الله تعالى خطة لكى ينشأ نسل جديد من البشر بعيدا عن مؤثرات بيئة الشرك لكى يفكر بعيدا عن تسلسل الشرك الفكرى .. وكان أنسب شىء لهذا مكان غير مأهول ، وبعيد عنْ المستوطنات البشرية . ولذلك اختيرت لهذا الغرض بلاد العرب الصحراوية المجدبة التى كانت منقطعة عن العالم المأهول

حينذاك .

والإنسان الأول المطلوب لإنشاء نسل جديد فى هذه المنطقة الصحراوية الجدباء هو مَنْ يكون مستعدا ليسكن فيها مدركا أنه قد يدفع حياته ثمن العيش بها . وهنا رأى إبراهيم رؤيا بأنه « ينحر » ابنه .. وكان المقصود من هذا هو التأكد مما إذا كان إبراهيم مستعدا لكى ينضم إلى الخطة الإلهية بحيث يذهب بولده ويسكنه هناك حيث لا شيء غير الجبال المجدبة وصحارى الرمال .. فكان السكن فى الحجاز حينئذ مرادفا للسكن فى وادى الموت .

وقد ظل الحجاز غير مسكون فى الأزمنة الغابرة لفقدانه الماء والخضرة . وكان الحجاز القديم خاليا من آثار حضارة الشرك لأنه كان خاليا من وسائل الحياة . وهذه الخاصية التى أخلت الحجاز القديم من المشركين هى التى أهّلته لكى يُعَدّ به نسلٌ جديد من الموحِّدين . وكان وضع إبراهيم المديةَ على حلقوم ابنه إسماعيل إعلانا بأنه مستعد لهذه التضحية كل الاستعداد . ولذلك اختير إبراهيم وإسماعيل لهذه الخطة الإلهية ، وبدأ العمل لإعداد نسل جديد من البشر بإسكان إسماعيل وأمه فى منطقة نائية من الحجاز القديم .

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله بأن يُظهر رسولًا من نسل إسماعيل .. وقد ولد رسول الله ﷺ نتيجة هذا الدعاء . ولكن ، كما هو معلوم ، هناك فاصل ٢٥٠٠ سنة بين هذا الدعاء وتحققه . والسبب فى هذا التأخير هو أن نسلا جديدا كان يُعَدّ خلال هذه المدة ليفكّر بعيدا عن تسلسل الشرك الفكرى ، ويكون مستعدا ومؤهلا نتيجة التربية الصحراوية لكى يقف إلى جانب الرسول ويساعده على تكميل رسالته . ولهذا السبب سميت هذه المجموعة بـ « خير أمة » . وهى أغرب أمة فى التاريخ ، فصحيح أن جزءا منها عادى الرسول فى بداية الأمر إلا أنها وقفت إلى جانبه بكل قوتها عندما فهمت الأمر وأدركت الحقيقة .

وهذا النسل الذى نشأ بمكة قد تداخلته فيما بعد مؤثرات الشرك من جراء تأثير البيئة المحيطة . ولكنه كان نسلا محفوظا نقيا فى حقيقة الأمر . وكان الناس على الفطرة الصحيحة باستثناء بعض الأفراد القليلى الفهم . وقد وقف أفراد من هذا النسل موقف المعاداة من الرسول فى بداية الأمر ، إلا أن معاداتهم كانت تعود إلى الجهل . وعندما أدركوا أن محمدا رسول حقا وأن دينه صادق تحولت عداوتهم إلى قبول وتحولوا إلى أصحاب له بكل ما لديهم من همة ونشاط .

وكانت الصفة المميزة للنسل – الذى أعده إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه رمزيا – هى أنه كان ينظر إلى الأشياء نظرة حرة مستقلة ، وكان بإمكانه أن يعترف بمثل هذه الحقيقة . فكان هذا النسل يتمتع بكامل الكفاية للاعتراف بالحقيقة . ونورد هنا ثلاثة أمثلة مختلفة تؤكد هذه الحقيقة .. ويتعلق المثال الأول بالفئة التى آمنت بالحق فور اطلاعها عليه ، والفئة الثانية أنكرت النبوة فى بداية الأمر إلا أنها بادرت إلى الاعتراف بها عندما فهمت الحقيقة ، أما الفئة الثالثة فلم تعترف للحفاظ على رئاستها ومراكزها إلا أن هذه الفئة أيضا لم تكن تخلو من هذه الصفات العالية .

١ – كان خالد بن سعيد بن العاص من أوائل الذين آمنوا برسول الله ﷺ . وجاء خالد إلى رسول الله ذات يوم وقال : « يا محمد إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده . قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . فسُرّ رسول الله بإسلامه وتغيب خالد ، وعلم أبوه بإسلامه فأرسل فى طلبه من بقى من ولده ممن لم يسلم ورافعا مولاه ، فوجدوه فأتوا به إلى أبيه أبى أحيحة فأنّبه وبكّته وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرها على رأسه ثم قال : اتبعتَ محمدا وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم ؟ فقال

خالد : « قد صدق والله واتبعته »[1] .

وكان خالد يقول بعبارة أخرى إنه عندما يقول محمد القول الحق فكيف يمكنه إلا يعترف برسالته ويؤمن بها .

٢ ــ ويتعلق المثال الآخر بسهيل بن عمرو الذى كان مندوب أعداء الإسلام عند صلح الحديبية .. وعندما بدأوا فى كتابة المعاهدة بعد مفاوضات طويلة قال رسول الله ﷺ وهو يملى نص المعاهدة : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، فاعترض سهيل بشدة على كلمة « رسول الله » وقال : « والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك » .

ويخبرنا التاريخ أن سهيل بن عمرو كان صادقا كل الصدق فى كلماته هذه وكان يعارض الإسلام بسبب جهله ليس إلا . أما حين أدرك سهيل فيما بعد أن الرسول ﷺ نبى صادق فإنه آمن به وسخّر حياته كلها لأجل الإسلام . وقد وقف سهيل موقف صدق يذكره التاريخ حين همت قريش بالردة فى أعقاب وفاة رسول الله ﷺ .

٣ ــ ويتعلق المثال الثالث بأبى جهل الذى لم يسلم ، إلا أننا نجد فى سلوكه مثالا قد لا نجده فى أى مكان آخر . ومن وقائع العصر المكى :

« أن أبا جهل مرّ برسول الله عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ، ومولاة لعبد الله ابن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك . ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه ، أن أقبل متوحشا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٩٤/٤ طبعة دار بيروت ، ١٣٩٨/١٩٧٨ .

ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم . وكان أعزّ فتى فى قريش وأشد شكيمة . فلما مرّ بالمولاة – وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته – قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ، وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ .

« فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد معدّا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجةً منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ؟ فرد ذلك علىّ إن استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا »[1] .

ثم هناك تلك الواقعة المشهورة التى وقعت مع الإمبراطور الرومى هرقل الذى سأل أباسفيان عما إذا كان محمد يكذب قبل النبوة ؟ فقال أبو سفيان : « لا » . وقد علّق ابن كثير بعد ذكر هذه الواقعة : « وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق »[2] .

وهذا هو النسل الإنسانى الذى أنشأه إبراهيم عليه السلام بـ « ذبح ولده » وتكونت « خير أمة » من صفوة هذا النسل التى قبلت بدين التوحيد قبولا كاملا وقضت على عصر الشرك بتضحيات لا مثيل لها وفجّرت عصر التوحيد ..

واستغرق تنفيذ هذه الخطة ألفين وخمسمائة سنة ابتداء بإبراهيم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ . وكان مركز هذه الخطة تلك المنطقة من بلاد العرب التى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ١/٢٩١ – ٢٩٢ . ط . الحلبى ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : سورة يونس : ١٦ – جـ ٢ ص ٤١٠ .

تسمى بالحجاز ومركزها مكة . والحج إعادة رمزية لذلك التاريخ . والمسلمون يعاهدون ربهم مرة أخرى عبر شعائر الحج بأنهم راغبون فى الاشتراك فى هذه الخطة الإلهية .. فهم يتقاطرون إلى أرض إبراهيم وإسماعيل رافعين شعار « لبيك اللهم لبيك » ، ويقلّدون بصورة رمزية خلال أيام معلومات ما وقع عليهما فى حقيقة الأمر ، وهم يقولون لله تعالى إنه لو دعت الحاجةُ فهم مستعدون لإعادة ذلك التاريخ الذى وقعت أحداثه على هذه الأرض ..

وقد استدار الزمان اليوم مرة أخرى فوصل إلى ما كان عليه فى عصر إبراهيم عليه السلام . فكان (الشرك) يسيطر على فكر البشر فى تلك الأيام ، أما اليوم فيسيطر (الإلحاد) على الفكر العالمى .. وإذا كان إنسان العصور الغابرة يفكر فى قالب الشرك فإنسان العصر الحاضر يفكر فى قالب الإلحاد .

والحقيقة أن قضية العصر الحاضر هى عين قضية العصر القديم ، مع فارق واحد وهو أن شاكلة الشرك كانت تغلب أذهان الناس فى العصور الغابرة ، أما اليوم فتغلب عليهم شاكلة الإلحاد . وأهم واجب إسلامى اليوم هو تحطيم هذه الشاكلة الفكرية . ويجب أن تسير حملة الإسلام اليوم على نفس المنهج الذى سارت عليه فى قديم الزمان .

ويجب أن يستعد البعض مرة أخرى للذبح . ويجب مرة أخرى أن يسكن البعض أولاده فى « الصحراء » لإحياء تاريخ الدين من جديد . وكان القضاء على عصر الشرك يتطلب التضحية بنسل بشرى ، واليوم نحتاج إلى تضحية مماثلة للقضاء على عصر الإلحاد . وهذا هو أكبر درس للحج . و « الحج المبرور » هو حج من يعود من الأراضى المقدسة بهذا العزم ..

والحقيقة هى أن عمل الحاج لا ينتهى بعد الفراغ من شعائر الحج بل يبدأ عمله الحقيقى بعد الانتهاء منها ، فعودته من الحج بداية لرحلة أكثر أهمية ..

ويردد الحاج مرة بعد أخرى خلال شعائر الحج كلمات : « لبيك اللهم لبيك » .. فما هى هذه الكلمات ؟ إنها كلمات معاهدة بين الله وعبده .. وتقع المعاهدة دائما فى بداية أمر ما، فهى ليست نهاية له . وهكذا عبادة الحج ، فمن يعود بعد أداء مراسم الحج فقد رجع بعد عقد معاهدة مقدسة مع ربه . ويجب عليه ألا يخلد لحياته على سابق عهدها قبل الحج ، بل يجب عليه أن يبدأ العمل وفق أحواله وكفايته طبقا لما عاهد ربه . فالعودة من الحج عودة من مقام العهد إلى مقام العمل . ولا تنتهى مسئوليات الحاج بعد الانتهاء من الحج بل تزداد وتكبر فى حقيقة الأمر .

وما هى معاهدة الحج ؟ . إنها عزم على إعادة تاريخ معين ، وهى إقرار باستعداد العبد لتكرار الحياة الإبراهيمية . فحين شاهد إبراهيم عليه السلام أهل العراق « المتحضرين » لا يصغون لكلامه حول التوحيد والآخرة وضع خطة جديدة لعمله بأن أخضع نفسه وأسرته لأشد التضحيات فأنشأ نسلا جديدا . لقد حوّل إبراهيم عمل الدعوة إلى خطة عظيمة . وقام بكل ما كانت هذه الخطة تقتضى منه من تضحيات .

وهكذا يجب على الإنسان أن يقوم اليوم بكل ما تقضيه الظروف وأن يظل صابرا على هذا الدرب إلى أن تحين منيته أو أن يصل إلى هدفه المنشود .

وكما كان الشرك يتمتع بالغلبة العالمية فى عهد إبراهيم عليه السلام فالإلحاد يتمتع بالغلبة العالمية اليوم . وواجب العائدين من الحج اليوم أن يعملوا على القضاء على عصر الإلحاد وإحياء عصر التوحيد من جديد عملا بالأسوة الإبراهيمية . وعليهم أن يحيوا الأسوة الإبراهيمية مرة أخرى فى هذا العصر ، ويجب عليهم أن يضحّوا فى هذا السبيل بكل ما تقتضيه الأحوال منهم ، فيجب عليهم أن يحوّلوا التضحية الرمزية إلى تضحية حقيقية .

إن الحج عزم على إعادة هذا التاريخ بصورة رمزية فى أيام الحج ، وبصورة عمل مخطط فى الحياة الحقيقية بعد انقضاء أيام الحج .

الفصل الثالث

أهمية الحج للدعوة

الفصل الثالث

أهمية الحج للدعوة

كانت القدس مركز الهداية الإلهية قبل ظهور خاتم النبيين ﷺ . وقد أصبح بيت الله الحرام بمكة المكرمة مركز الهداية فى العالم بعد ظهور خاتم النبيين[1] . والحج من ناحية هو اجتماع الدعوة السنوى للمؤمنين برسالة الإسلام فى كل أنحاء العالم .. فهم يجتمعون فى الحرم فى أيام معلومة لكى يقيموا علاقتهم بالله تعالى فى بيئته المقدسة ، ويعملوا على تقوية أواصر الوحدة بين المسلمين ويقلّدوا مختلف مراحل حياة الداعى الأعظم إبراهيم عليه السلام بصورة رمزية ليعزموا على العيش دعاةً إلى دين الله فى كل الأحوال .

تاريخ الحج

كان الله قد جعل إبراهيم إمام الهداية حين قال : ﴿ إِنِّى جاعِلُك للنَّاسِ إمامًا ﴾[2] . أى أن الله تعالى قد اختاره لعمل دائم لكى يصل علم النبوة إلى الآخرين بدون انقطاع . وقد ظهر أثر هذا القرار الإلهى فى الألفى سنة الأولى عبر أولاد إسحاق بن إبراهيم . فظهر عدد كبير من الأنبياء فى هذا الفرع ابتداء من إسحاق إلى المسيح عليهما السلام . وقد قام هؤلاء بإبلاغ الرسالة فى فلسطين وما يليها من المناطق بصورة غير منقطعة . ثم انتقلت هذه الإمامة الدينية إلى الفرع الإسماعيلى من أولاد إبراهيم بعد المسيح عليه السلام ، فظهر فيه آخر الأنبياء الذى هيّأ الله له

---

(١) انظر : ١٤٤ من سورة البقرة .

(٢) سورة البقرة : ١٢٤ .

غلبة خاصة للحفاظ الأبدى المؤكد على الكتاب الإلهى ، ولكى لا يندثر أو يتلوث الدين الإلهى مرة أخرى . وهذا هو الشيء الذى وصفه القرآن الكريم بإظهار الدين : ﴿لِيُظهِره على الدينِ كلِّه﴾[1] . فكان المطلوب من عموم الأنبياء والرسل أن يبلغوا دين الله بينما كان مطلوبا من نبى آخر الزمان أن « يُظهِر » الدين إلى جانب تبليغه .

وكان إنجاز هذا الهدف يتطلب وجود جماعة مساعدة تتحلى بكل الصفات الإنسانية العالية الحميدة ، لكى تقف إلى جانب نبى آخر الزمان وتساعده على تحقيق إظهار الدين . ولإعداد هذه الجماعة أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وولده إسماعيل فى مكة القديمة التى كانت تفتقر إلى أسباب الحياة لكى يظهر قوم عن طريق التوالد والتناسل فى بيئة فطرية بعيدة عن « الحضارة » ، فيتمتع بكل الكفايات الإنسانية العليا ، ويفكر تفكيرا حرا مستقيما ، ولا يكون هناك تناقض بين قوله وفعله ، ويكون مستعدا للتضحية بكل ما لديه لأجل الحق النظرى .. وهم قوم يتمتعون بصلابة الجبال وسعة الصحراء وعلوّ السماء .

وحين برزت ﴿ خير أُمةٍ ﴾[2] بعد التربية فى هذه البيئة الصحراوية ظهر فيها ذلك النبى الذى دعا إبراهيم من أجله عند بناء الكعبة[3] .

وكأن الله تعالى قد أراد أن يظهر نبى فى أولاد إبراهيم عن طريق سارة وولد هذا النبى فى حياة إبراهيم وسمى بإسحاق .. ومن ناحية أخرى دعا إبراهيم ربه بأن يجعل نبيا من أولاد ابنه إسماعيل ، فاستغرقت استجابة هذا الدعاء أكثر من ألفى سنة .. فما هو الفرق بين الحالتين ؟ إن الفرق بينهما هو الفرق بين الدور

---

(١) سورة التوبة : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٣) وهذا فى قوله تعالى : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ البقرة : ١٢٩ .

التاريخى لكلا الفرعين .. فكان نبى آخر الزمان يحتاج إلى صنف نقى حيّ ليقوم بدوره المطلوب واستغرق الأمر أكثر من ألفى سنة لإعداد فرع كهذا تحت قانون الأسباب . وولد رسول الله طبقا لخطة إلهية حين تكوّن هؤلاء القوم . ولكن كان ضروريا فى الوقت نفسه أن يستمر تسلسل الدعوة ريثما يجرى هذا الإعداد ، ولذلك قرر الله تعالى أن يظهر الأنبياء فى فرع بنى إسرائيل فاستمر تسلسل الأنبياء ، واحدا بعد الآخر ، لإبلاغ رسالة العبودية الإلهية إلى البشر ، وانتهت هذه الضرورة عندما حان موعد ظهور آخر الأنبياء .

وخرج إبراهيم عليه السلام طبقا لهذه الخطة من وطنه العراق فأسكن إحدى زوجتيه — سارة — التى ولدت له إسحاق ، بالخليل فى فلسطين . ومن ناحية أخرى أسكن زوجته الأخرى هاجر وولده منها إسماعيل بمكة فى الصحراء العربية وبنى بها الكعبة بيتا لله . وهكذا كانت فلسطين مركز الجزء الأول من خطة الهداية العالمية التى تحققت بواسطة إبراهيم ، بينما كان الحجاز هو الجزء الآخر منها .

وأصبحت فلسطين مركز الهداية الإلهية فى أول الأمر بعد وفاة إبراهيم عليه السلام . وولد بها كل أنبياء ذلك العصر من إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداوود وسليمان وعيسى وغيرهم عليهم صلوات الله وسلامه . وكان الاسم الآخر ليعقوب ، حفيد إبراهيم ، هو « إسرائيل » ، ولذلك عرف أبناء هذا الفرع بـ « بنى إسرائيل » . وحين أصيب بنو إسرائيل بالانحطاط ولم يصلحوا أمرهم — بالرغم من تحذير الأنبياء المستمر — عزلهم الله تعالى عن منصب حَمَلَةِ الهداية السماوية ونقل هذا المنصب المقدس إلى الفرع الآخر — بنى إسماعيل — من أولاد إبراهيم . وحدث هذا حين كان الفرع الآخر قد ظهر ليواصل حمل الرسالة الإلهية نتيجة عمل تاريخى دام ألفى سنة . وغيّر الله تعالى قبلة العبادة كعلامة ظاهرة على هذا التغيير . فكان كل الأنبياء من بعد إبراهيم يتوجهون شطر البيت المقدس للصلاة ، والآن نُسِخت القبلة القديمة وجُعِلت

الكعبة قبلةً للعابدين فى كل أنحاء العالم .

الحج مؤسسة دعوية

الحج إعادة للتاريخ الإبراهيمى . فالحاج يقلد بصورة رمزية مختلف مراحل الخطة العالمية التى نفذت بواسطة إبراهيم عليه السلام ، معاهدا ربه بأنه سيسخّر نفسه للرسالة الإلهية التى سخّر إبراهيم نفسه من أجلها ، وأنه سيظل يقوم بالعمل الدعوى الذى قام به رسول الله ﷺ خاتما للأنبياء .

وكان إبراهيم عليه السلام قد خرج من وطنه لتنفيذ خطة إلهية دعوية .. وهكذا يقول الحاج بلسان حاله إنه مستعد — هو الآخر — ليترك وطنه من أجل الدين . وكان إبراهيم عليه السلام قانعا راضيا بحياة بسيطة ، وهكذا يعلن الحاج بواسطة الإحرام أنه سيكتفى بالحاجات الضرورية ليركّز نظره على الهدف الأصلى . وكان إبراهيم عليه السلام قد أعلن ولاءه لله تعالى بالطواف حول البيت الحرام وهكذا يعلن الحاج ولاءه لله تعالى بالطواف حول الكعبة المعظمة . وكانت زوج إبراهيم قد سعت بين الصفا والمروة بحثا عن الماء ، وهكذا يُظهِر الحاج بسعيه بين هذين الجبلين أنـه مستعد للذهاب فى سبيل الله إلى آخر الحدود ، ولو يحدث لأهل بيته ما حدث لهاجر وإسماعيل . وقد رمى إبراهيم الشيطان بالجمرات حين حاول أن يثنيه عن عمل الله تعالى ، وهكذا يعلن الحاج برميه الجمار بغضه للشيطان ، وبأنه هو الآخر سيعامل الشيطان معاملة مماثلة لو حاول أن يغويه مثلما حاول إغواء إبراهيم وكان إبراهيم قد استعد ليضحى بحياة ابنه ابتغاء مرضاة الله وهكذا يعلن الحاج — بتقديم الأضحية — بأنه مستعد للذهاب إلى أقصى حدود التضحية من أجل الدين . وكانت رسالةالدعوة التى قام بها إبراهيم عليه السلام تهدف إلى تذكير البشر بيوم الآخرة ، وهكذا يتجمع الحجاج فى أرض عرفات ليذكروا يوم الحشر ويجعلوا هذه الحقيقة الكبرى جزءا من وعيهم وليخبروا الآخرين بأمرها .. وكلما نادى الله إبراهيمَ وجده مستعدا لتلبية دعوته ، وهكذا يقول

الحاج عند أداء كل شعائر الحج : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك » وبهذا يعلن الحاج أنه مستعد لتلبية نداء ربه فى كل آن .

والحقيقة أن بيت الله الحرام مركز الدعوة الإسلامية ، وأن الحج هو المؤتمر العالمى لدعاة الإسلام . والأفعال التى نقوم بها فى الحج هى كلها علامات على مراحل من حياة إبراهيم فى سبيل الدعوة .. ومناسك الحج إعادة رمزية لكل الوقائع التى وقعت لإبراهيم عليه السلام فى مختلف مراحل نشاطه من أجل الدعوة . ويقلد الحاج هذه الوقائع « شعارا » — أى رمزا وعلامة — فى أيام الحج ، فيعقد العزم على أنه سيعيش داعيا كما كان إبراهيم عليه السلام داعيا إلى الرسالة الإلهية .. وبعض هذه الأفعال مراحل مباشرة لحياة الدعوة بينما يعتبر البعض الآخر من هذه الأفعال مراحل غير مباشرة .

وتخبرنا حياة إبراهيم أن مناسك الحج كانت جزءا من حياته لأجل الدعوة ، أو كانت محطات على مسيرته من أجل الله . ولكن الحج وزيارة الكعبة قد أصبحا نوعا من نسك دينى سنوى لدى مسلمى العصر الحاضر . ولو قام فى المسلمين شعور بالدعوة وروح التبليغ لاكتسب الحج تلقائيا أهمية دعوية ولَتحول إلى مؤتمر سنوى للدعوة . ولكن حين تنعدم روح الدعوة بين المسلمين يتحول الحج إلى عمل بلا روح ، مثلما هو عليه الآن فى الغالب . إنهم يرمون الشيطان الحجرى بالجمرات ولكنهم لا يقومون بشىء لهزيمة الشيطان الحيّ . إنهم يقلّدون أعمالا رمزية ولكن تكاد تنعدم فيهم روح أداء الأعمال الحقيقية .

الحج وسيلة للوحدة

إن أهم ما يميز مسلمى العصر الحاضر هو اختلافهم وانتشارهم . فما السبب فى انعدام الوحدة الداخلية بينهم بينما توجد لديهم مؤسسة اجتماعية نادرة كالحج ؟ وكان ينبغى أن يكون الحج — بمؤتمره السنوى العالمى — وسيلة قوية لاتحاد

المسلمين تذيب كل الخلافات الأخرى . ويعود السبب فى هذا إلى أن الحج قد أصبح تجمعا تقليديا بدلا من أن يكون مؤتمرا حيّا لحملة رسالة عظيمة .

وتتطلب الوحدة أن يوجد بين الناس هدف مشترك يركّز أنظارهم وتوجهاتهم نحو الهدف الأعلى .. فتوجهات الناس تتشتت فى قضايا تافهة عندما يختفى الهدف الأعلى عن الأنظار .. وهم لن يتحدوا فيما بينهم مهما عقدت المؤتمرات الكبرى . والدعوة هى الهدف الأعلى للأمة المسلمة ، وستتجه الأمة كلها إلى هدف أعلى لو برزت فيهم هذه العاطفة الدعوية . وعندئذ سيصبح مؤتمر الحج وسيلة لتحقيق الوحدة العالمية بين المسلمين ، وبالتالى سيصبح الحج مركز الدعوة الإسلامية العالمية .

الحج عمل حى

وكان رسول الله ﷺ قد أدى حجة الوداع سنة ١٠ هـ ، وألقى فى التاسع من ذى الحجة خطبة تفصيلية فى وادى عرفات أمام أكثر من مائة ألف من المسلمين . وتعرف هذه الخطبة بخطبة حجة الوداع ، كما أن حجه هذا يعرف بحجة البلاغ لأنه ﷺ أبلغ أمته كل التعاليم الإسلامية الأساسية فى هذه الخطبة ، وأخذ منهم عهدا بإبلاغها إلى الآخرين . وقال فى آخر الخطبة : « ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فربّ مبلّغ أوعى من سامع . وأنتم تُسألون عنى ، ماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : « نشهد أنك قد أديت الأمانة وبلّغت الرسالة ونصحت ، فقال رسول الله ﷺ بأصبعة السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : « اللهم اشهد ، اللهم اشهد » .

وتوفى رسول الله ﷺ بعد شهرين من هذا . وكان الإسلام قد انتشر فى بلاد العرب وحدهم فى حياة الرسول ﷺ ، وخرج أصحابه الكرام إلى خارج بلاد العرب وجعلوا رسالة حياتهم تبليغ الإسلام ، وسخّروا أنفسهم بكل ما يملكونه

لأجل نشر الدين الإلهى .. وكانت النتيجة أن انتشر الإسلام فى جزء كبير من العالم القديم خلال خمسين سنة من وفاته ﷺ .

والناس لا يزالون يؤدون وبدون انقطاع فريضة الحج بصورة منتظمة ، ويردد الإمام كل سنة كلمات مماثلة لما قاله رسول الإسلام قبل أربعة عشر قرنا ، ولكن كلمات هؤلاء الأئمة لا تؤدى إلى نتيجة ما هذه الأيام .. فما الفرق بين الحالتين ؟ إن الفرق يعود إلى أن الحج كان عملا حيّا فى الماضى ، وقد تحول اليوم إلى عمل تقليدى . والذين كان رسول الإسلام يخاطبهم فى حجة الوداع كانوا قد تجمعوا هناك لكى يسمعوا ويطيعوا . أما جموع الحجاج التى تتوجه إلى مكة والمدينة هذه الأيام فلا يهمّها إلا أن تؤدى بعض الطقوس لتعود مرة أخرى إلى بلدانها فتعيش كما كانت تعيش من قبل .

ومن هنا ندرك أن إحياء الحج كفاعل مؤثّر فى الحياة الإسلامية اليوم يقتضى إحياء الحجاج . وما لم نُحْيِ شعورَ الحجاج ، وبكلمة أخرى شعورَ المسلمين ، فستظل عبادة الحج بدون أثر تماما كبندقية فاسدة لا تطلق النار عندما يُضغَط على زنادها .

تنظيم جديد للحج

وإحياء الحج بروحه الأصلية يقتضى إحياءه كمؤسسة للدعوة ؛ فينبغى تسخير الحج كمركز للتخطيط العالمى للدعوة الإسلامية . وينبغى أن يعرض الناسُ من مختلف البلاد أحوالَ الدعوة فى بلدانهم فى هذه المناسبة العالمية ، فينبغى أن يطلع الناس على تجارب المناطق الأخرى ويستفيدوا بها . ويجب على خطب الحج أن تركز على بيان أهمية الدعوة وتشرح إمكاناتها الجديدة ، وأن تعد مؤسسة الحج مكتبة دعوية بمختلف اللغات ليتم نشرها على المستوى العالمى ، الخ ..

وينبغى أن ندرك أن توجيه الحج على هذه الخطوط الجديدة لن يتم بدون توجيه

حياة المسلمين على خطوط جديدة .. فمسئولية المسلمين الأساسية هى الشهادة على الناس ، وعلاقتهم مع الشعوب الأخرى هى علاقة الداعى والمدعو . ولكن هذه الحقيقة قد غابت عن مسلمى العصر الحاضر . ويجب إحياء المسلمين كجماعة داعية لكى يتم إحياء الحج كمؤسسة للدعوة ، ويجب إقناع المسلمين بأن يُنهوا أنشطتهم القومية فى كل أنحاء العالم التى تحول دون قيام جو الداعى والمدعو بينهم وبين الشعوب الأخرى . ولو لم يتوفر مثل هذا الجو بينك وبين الشعوب الأخرى فمَنْ ستدعو ومَنْ سينصت إلى دعوتك ؟

ثم يقتضى هذا الهدف أن نقيم جامعات من الطراز الأعلى وتكون مناهجها وأنظمتها موجهة للدعوة بصورة كلية ، وأن تقام مؤسسات تربّى الدعاة تربية دعوية صحيحة ، وأن تُنشأ مكتبة تخلق بين الناس العقلية الدعوية وتسلحهم بمعلومات الدعوة . بل ويقتضى هذا الهدف أن ننشئ من جديد المكتبة الإسلامية الأساسية لأن كتب التفسير والسيرة التى أُلفت فى العصر الحاضر قد كتبت بدافع رد الفعل على وجه العموم .. فقد ظهرت هذه الكتب ردا على حملات الشعوب الأخرى الفكرية والعملية ، ولم تظهر لأجل الدعوة إلى الإسلام بصورة إيجابية .

ولو عدتَ بمخيلتك إلى الوراء ، إلى بدء العصر المكى فسترى رسول الإسلام يطوف حول الكعبة وحيدا . فكان للإسلام تابع واحد فى العالم كله .. أما اليوم فستشاهد جموعا غفيرة كل يوم تطوف حول الكعبة ، ثم ترى الجموع تتقاطر إلى مكة من كل أنحاء العالم فى أيام الحج لدرجة أن المسجد الحرام يضيق بهم كل سنة على توسعته المستمرة . فكيف تحققت هذه الكثرة ؟! والرد هو أن هذا تحقق بالدعوة . فالحقيقة هى أن مؤتمر الحج العالمى مظاهرة سنوية لقوة الدعوة الإسلامية ، وهو يخبرنا بأن الله تعالى قد أودع أسرار كل الرقى والعظمة فى قوة الدعوة الإسلامية .. فنجاة أهل الإسلام دنيويا وأخرويا رهن بقيامهم بهذا

الواجب . ونعرف من دروس التاريخ أن قوة الإسلام كانت دائما فى دعوته . صحيح أن الإسلام لم يتمكن فى بدايته من التأثير فى عوام الناس بمكة إلا أن كل الأفراد ذوى القيمة ، الذين أصبحوا فيما بعد أعمدة التاريخ الإسلامى هم أولئك الذين وجدهم الإسلام فى بداية العصر المكى . وهذا يعود إلى الدعوة الإسلامية وحدها لأن الإسلام لم يكن يمتلك قوة ما غيرها حينذاك . ورجال مكة الذين أسلموا فيما بعد هم أيضا تأثروا بأحقّية الإسلام الفكرية مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما .

واستحكم أمر الإسلام فى المرحلة الثانية أى فى العصر المدنى بواسطة الدعوة نفسها ، فلم يغزها الرسول ولم يفتحها عسكريا .. بل آمن البعض من أهل المدينة بالإسلام ورجعوا دعاةً إلى الإسلام فبدأوا يدعون الناس بأسلوب بسيط[1] .. ونتج عن هذا دخول الناس أفواجا إلى الإسلام إلى أن أصبحت المدينة المركز الفكرى والعملى للإسلام .

وبعد قرون واجه الإسلام مشكلات المغول والتتار .. فجاءت هذه الشعوب الوحشية ممتطية خيولها بالسيوف والرماح فزحفت على البلاد الإسلامية ففتحتها وخرّبتها وأزالت مراكز قوتها حتى بدا للناس فى ظاهر الأمر أن تاريخ الإسلام سينتهى بهذه الهجمات كما انتهى من قبل تاريخ حضارات كبرى . ولكن هنالك برزت قوة الإسلام الدعوية فحلت المشكلة كلها بأن أصبحت هذه الشعوب الفاتحة جزءا من الإسلام .

والحج وبيت الله علامتان على خطة دعوية عظيمة ، فعندما لم يُسمَع صوت إبراهيم عليه السلام فى مناطق العراق والشام ومصر « المتحضرة » ، أسكن أسرته ــ بأمر الله ــ بمكة وبنى بها الكعبة لتكون مركزا دائما للهداية الإلهية ﴿ إن

---

(١) بالإضافة إلى جهود الداعية مصعب بن عمير .

أولَ بيتٍ وُضِع للناسِ لَلّذى ببكة مباركًا وهدًى للعالمين ﴾[1] .

ويروى عمرو بن عوف رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين ليأزر إلى الحجاز كما تأزر الحية إلى جحرها وليعقلنّ الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل . إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا ، فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنّتى »[2] .

وهذا يعنى أنه كما كان الحجاز مركز الدعوة الإسلامية فى حياة الرسول ﷺ فكذلك سيصبح الحجاز مركز إحياء الدين الإلهى حين يختفى أثره من حياة الناس . فالحج مقام العبادة الإلهية كما هو مركز الدعوة إلى دين الله وتجديده . وتقتضى الحاجة أن نحيى الحج ومركز الحج مرة أخرى من هذه الناحية .

وقد فتحت الثورة العلمية كثيرا من الإمكانات الجديدة . ويمكن نتيجة لهذه الإمكانات أن نستخدم مؤتمر الحج العالمى لأجل التخطيط للدعوة على مستوى أعظم من أى وقت مضى ، فنجعل منهج الفكر الإسلامى هو المنهج الفكرى الغالب على العالم مرة أخرى تماما كما كان فى العصور الماضية .. هذا هو المعنى الذى يعبر عنه القرآن الكريم بكلمات « إظهار الدين » و « إعلاء كلمة الله » ، ولا يتحقق هذا الهدف إلا بإحياء أهمية الحج الدعوية مرة أخرى .

شرط ضرورى

هناك شرط ضرورى لتحويل مؤسسة الحج إلى مؤسسة عالمية للدعوة وهو إبقاء فريضة الحج بعيدة عن السياسة بصورة كلية .

وقد أديتُ فريضة الحج فى سبتمبر سنة ١٩٨٢ .. ورأيت ذات يوم ، وأنا فى بيت الله الحرام ، أن أناسًا من بلد معين دخلوا المسجد الحرام بدأوا يرفعون

---

(١) سورة آل عمران : ٩٦ .

(٢) أخرجه الترمذى : أبواب الإيمان ، باب بدأ الإسلام غريبا .

شعارات بحياة زعيم بلدهم . فتجمع حولهم كثير من الحجاج وبدأت بينهم مناقشات خلافية..واستمرت هذه المناقشات فترة طويلة..وجوّ بيت الله هو جو الذكر والعبادة ولكن هذه الجهالة حوّلته إلى جو النزاع السياسى ! !

وحدثت هذه القصة فى المدينة أيضا .. وكنتُ أقيم بأحد الفنادق فى المدينة ، وهنا جاء بعض الشبان إلى غرفتى وكانت لديهم كتيبات مطبوعة بالإنجليزية والعربية .. وكانت هذه الكتيبات تحتوى على هجوم على حاكم بلد إسلامى معين ، وقدّم هؤلاء الشبان هذه الكتيبات إلىّ فقلت لهم : إنكم تضيّعون وقتكم الثمين وتسيئون استخدام أيام الحج أيضا .. واستمر هؤلاء الشبان يتجادلون معى بعض الوقت إلى أن انصرفوا غاضبين .

وقد أصبح هذا الاتجاه خطيرًا فى الزمن الحاضر ، فتنظر بعض المنظمات والحكومات إلى الحج من زاوية أنه تجمع عدد كبير من المسلمين فى وقت واحد ومكان واحد ، ولذلك تريد هذه المنظمات والحكومات أن تستخدمه لأهدافها السياسية المحدودة .. ولكن هذا الأسلوب خاطىء تماما ، وهو يعارض أهداف الحج بصورة كلية . فينبغى أن ننظر إلى المسلمين ، الذين يتجمعون للحج ، من زاوية أنهم جاءوا لأداء هذه الفريضة وحدها . والطريق الصحيح للاستفادة من هذا الاجتماع العالمى هو أن نبعث فى الناس روح الدعوة لكى يعودوا إلى بلدانهم دعاة إلى دين الله بدلا من أن ينشروا هناك دعايات سلبية ضد بعض المسلمين .

إن الحج قوة عظيمة ويمكن استخدامها لأجل الدعوة الإسلامية العالمية بطريقة مؤثرة للغاية ولكن بشرط ألا يكون مسرحا للخلافات بين المسلمين .

الفصل الرابع
الجانب العاطفى فى الحج

الفصل الرابع

الجانب العاطفى فى الحج

قال الله تعالى فى القرآن الكريم : « وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعبدونِ »[1] . ونعرف من هذا أن عاطفة عبادة الله قد أودعت فى النفس الإنسانية بصورة جبلّية .. فليس على الإنسان أن يعبد الله مراعاةً للواقع فقط بل فطرته هى الأخرى تطالبه بذلك لأن عبادة الله هى من صميم الطبيعة البشرية . هذا هو السبب فى أنه لا يوجد شىء يبعث فى الإنسان الطمأنينة والسكينة الحقيقية مثل عبادة الله : ﴿ ألَا بِذكرِ اللهِ تَطمَئنُّ القلوبُ ﴾[2] .

فكما أن الطفل الصغير يلجأ إلى أمه بصورة جبلّية فكذلك تقتضى جبلّة الإنسان أن يلجأ إلى ربه . وليس بمقدور الإنسان أن يغيِّر من شخصيته الداخلية ، وكذلك ليس بمقدوره ، كذلك ، أن يطرد فكرة الله من قلبه ومخه .

شهادة علم الإنسان المعاصر

وقد أثبت علم الإنسان المعاصر هذه الحقيقة بصورة علمية .. وقد درس خبراءُ علم الاجتماع الحديث المجتمعَ البشرى بعمق . ومن أهم الحقائق التى ظهرت عقب دراسة المجتمعات البشرية من العصور الغابرة إلى اليوم أن الإنسان ظل مؤمنا بالله بالرغم من كل التطورات والتغيرات التى مرّ بها . فالإيمان بالله والدين جزء لا يتجزأ من الفطرة البشرية .. وننقل فيما يلى فقرة من دائرة المعارف الأمريكية[3]

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) سورة الرعد : ٢٨ .

(٣) دائرة المعارف الأمريكية ط . ١٩٦١ ، جـ ٢٣ ، ص ٣٥٤ .

حول خلاصة بحوث علم الإنسان المعاصر :

« كان الإنسان مؤمنا بالدين بدرجات متفاوتة منذ بداية التاريخ البشرى ، فكان دائما يؤمن بإله أو بعدة آلهة طالبا الحماية . وكانت هذه الآلهة مصنوعة فى بعض الأحايين من خشب أو حجر ، كما أنها اتخذت فى أحايين أخرى أشكال حيوانات أو زواحف أو حيوانات مخيفة تسعى إلى مصّ دماء الذين يعبدونها . ولكن أيا كانت هذه الآلهة فقد عبدها الإنسان لأن الدين — المتمثل فى عبادة قوة خارقة للطبيعة — جزء لا يتجزأ من نسيج الطبيعة البشرية » .

والحقيقة أن الشعور بالله كامن بصورة جبلّية فى الفطرة الإنسانية ولكنه شعور إجمالى . وعندما لا يهتدى الإنسان إلى الإله الحقيقى فهو يتجه إلى عبادة الآلهة التى تصنعها أوهامه . وستجد الفطرة البشرية سكينة لهذه العاطفة الفياضة فى عبادة الله وحده الذى لا شريك له لو تيسر لها الاهتداء إلى رسالة نبى من أنبياء الله أما لو لم تظفر بالهداية النبوية فستعبد آلهة باطلين لتسكين هذه العاطفة بصورة اصطناعية .

والمقصود الأصلى للإنسان واحد لا غير ، وهو خالقه ومالكه . وهذا المقصود الأصلى جزء عميق من فطرة الإنسان .. ولو أنصت الإنسان إلى طبيعته فإنه سيهتدى إلى الله ، وهو سيشعر به فى نبضات قلبه .. فهذه الفطرة « لاشعور » الإنسان ، والرسول ينقل الإنسان من هذا اللاشعور إلى مستوى « الشعور » .

ولكن الإنسان مخلوق من نوع معين ، فلا تكفيه المعرفة الغيبية بل هو يريد أن يكتشف الله بصورة حسية أيضا فيدرك الله إدراكا محسوسا . ولكن العائق هنا هو أنه لا يمكن للإنسان أن يدرك الله إدراكا محسوسا حقيقيا قبل الآخرة .

ولا شك فى أن الإنسان سيشاهد ربه فى الآخرة ، فقد جاء فى القرآن : ﴿ وُجُوهٌ يومَئِذٍ ناضِرةٌ ۝ إلى ربِّهَا ناظِرةٌ ﴾[1] .. وقد ورد فى الحديث هذا المعنى

---

(١) سورة القيامة : ٢٢ ، ٢٣ .

بالتواتر ، وجاء فى إحدى روايات صحيح البخارى : « إنكم سترون ربكم عيانا » . وفى الصحيحين عن جرير قال : « نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر » .

شعائر الله

إنه من الحقائق الدينية أن الإنسان سيشاهد ربه مشاهدة حقيقية فى الآخرة إلا أن الإنسان ــ وهو يؤمن بمشاهدة الله فى الآخرة وحدها ــ يتوق إلى أن يجد ربه وأن يقترب منه اليوم قبل الغد .. وهذه هى الفطرة البشرية . والسؤال هو : كيف يمكن تلبية هذه الرغبة البشرية فى هذه الدنيا ؟

وقد هيأ الله تعالى إجابة على هذا السؤال فى سورة « شعائر الله » ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[1] لقد جعل الله بعض الأشياء ــ لأهميتها التاريخية ــ « شعيرة » أى علامة عليه . وقد وفّر الله تعالى حول هذه العلامات حالةً معينة بحيث تعتبر مشاهدتها هى مشاهدة الحقائق العليا لكى يجد الإنسان بصورة غير مباشرة الحقيقة العليا التى لا يمكنه أن يجدها بصورة مباشرة فى هذا العالم . فالإنسان لا يستطيع أن يجد الله فى هذه الدنيا إلا أنه يستطيع أن يشاهد شعائر الله ، وليس بإمكان الإنسان أن يجد الله فى هذه الدنيا فيلمسه أو يشعر بقربه إلا أنه يستطيع أن يلمس شعائر الله فيحصل على التجربة الحسية للقربة الإلهية .

والشعيرة (وجمعها شعائر) تعنى علامة أو تذكارا ، فهى ليست أصلا فى ذاتها بل هى تذكّرنا بالأصل بنـاء على علاقة ما ، ومن أمثلته جبلا الصفا والمروة

---

(١) سورة البقرة : ١٥٨ .

اللـذان قال عنهما القرآن : ﴿ إنَّ الصَّفا والمروةَ من شعائرِ اللهِ ﴾ .

والصفا والمروة جبلان بمكة بالقرب من بيت الله . والمسافة التى تفصل بينهما نحو ٥٠٠ قدم . ولم يكن بهذه المنطقة سكان أو مياه حين أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل . وحين انتهى ما كان لدى السيدة هاجر من ماء سعت سبع مرات بين هذين الجبلين بحثا عن الماء ، واليوم يسعى الحجاج سبع مرات بين هذين الجبلين تخليدا لذلك السعى .

وقد أحب الله تعالى هذه الواقعة فجعل الصفا والمروة شعيرتين له أى أنهما تذكاران أصيلان للعبودية لله .. فنتذكر تاريخا كاملا برؤية الصفا والمروة حين هجر عبد من عباد الله وطنه الخصيب (العراق) وأسكن زوجه وابنه فى منطقة جدباء ابتغاء مرضاة الله وحده .. وهذا مثال كامل للاعتماد على الله والثقة به .

وهكذا الكعبة والحجر الأسود ومقامات الحج الأخرى هى كلها من شعائر الله وهى علامات على حياة العبودية الخالصة التى عاشها الموحِّد الكامل إبراهيم عليه السلام ، فنتذكر حياة إبراهيم التوحيدية برؤية هذه الشعائر . وتتجسد للناظر إليها عظمة الله وجلاله ، ويشعر الإنسان وهو فى بيئة هذه الشعائر كأنه فى بيئة الله .

ومن آثار لمس الحجر الأسود استيقاظ العواطف الروحية فى نفس الإنسان لتسكن هذه العاطفة الجياشة فى الصدور ، وليظفر الإنسان بسكينة هذه العواطف بلمس الحجر الأسود .. وهكذا يتوق الإنسان إلى أن يطوف حوله ، ليسكن هذه العاطفة بالطواف حول بيت الله المقدس . ويريد الإنسان أن يسعى ويجرى فى سبيل ربه وهو يحصل على سكينة لهذه العواطف حين يسعى بين الصفا والمروة . وهكذا تسكن كلُّ مراسم الحج بصورة أو أخرى العواطفَ الكامنة فى النفس البشرية ، وهى وسيلته لإقامة علاقة حسية مع ربه فى هذا العالم .

وعاطفة العبودية لله وحده كامنة فى فطرة الإنسان .. وما الشرك وعبادة الأصنام إلا إساءة لهذه العاطفة الفطرية . أما عقيدة التوحيد فتوجّه هذه العاطفة

الفطرية وجهةً صحيحة . وهكذا مراسم الحج .. فالحج من إحدى النواحى إصلاح لخطأ بشرى وهو يمنع الإنسان من السير فى الاتجاه الخاطىء ويوجّهه الاتجاهَ الصحيح . فالحج شكل صحيح لتسكين عاطفة بشرية يبحث الإنسان عن سكينتها بأساليب باطلة .

ويريد الإنسان المنحرف الضال أن « يشاهد » ربَّه فى الدنيا وأن « يجده » بصورة حسية لكى يؤدى أمامه مراسم العبودية .. ولكى يسكّن الإنسانُ هذه العاطفة نَحَتَ صورًا مرئية أو أصناما وتماثيل وأخذ يعبدها ظنا منه أنها على صورة الله .. ولكن هذا السلوك « إلحاد » أى انحراف فى تعبير القرآن . وشعائر الله إجابة أصح وأفضل للبحث البشرى الضال لتسكين عاطفة فطرية فى صورة الأصنام .

وأن تصنع صنما لله ليس كأن تصنع تمثالا لأحد البشر .. فالذى يصنع تمثالا لشخص ما يكون قد رأى ذلك الشخص أو اطلع على صورة له على الأقل . ولكن لا يمكن لأى صانع تماثيل أو أصنام أن يدعى أنه قد شاهد الله . والذى يصنع صنما لله فهو يحدِّد ويحجِّم ذلك الوجود الذى لا حدود له ، وهو يضع وجودا أعلى وأعظم فى قالب أشياء أدنى . وكل عمل من هذا النوع مخالف للواقع ، وهو مرادف للخروج والتمرد على الخالق . والحج فى ناحية من النواحى إصلاح لهذه العقلية البشرية . ورسالة الحج هى : لا تحاولوا أن تهبطوا بالله إلى مستوى التماثيل ، بل انظروا إليه على مستوى شعائره فليس بوسعكم أن تجدوه فى هذه الدنيا على مستوى ذاته الإلهية ، ولكن يمكنكم أن تجدوه على مستوى آثار تلك الذات العليا ، وهى « الشعائر » التى قامت نتيجة أعمال عباد الله العظام ، وهى الاعتبار والتأسى بتلك اللمحات التاريخية التى قام خلالها اتصال بين الله ورسوله الصالح إبراهيم .

وشعائر الله هى آثار أولئك العظام الذين اختاروا العبودية لله بصورتها العليا

المعيارية . وآثارهم هى التى توصف بشعائر الله وتؤدى جميع مناسك الحج عند هذه الشعائر . والبعد عنها بعد عن الله . والعلاقة بها علاقة بالله .

علاقة بالله

ومن أهم جوانب الحج أنه لقاء العبد بالحقيقة العليا . وتغشى العبدَ كيفياتٌ ربانية من نوع خاص فيشعر بأنه قد خرج من « دنياه » إلى « دنيا الله » وأنه يلمس ربه ويطوف حوله ويسعى نحوه ويسير هنا وهناك من أجله ويقدّم الهدى لمرضاته ، ويرمى أعداءه بالجمرات ، ويسأله كلما أراد أن يسأله ، ويجد منه كل ما رغب فيه .

وميدان عرفات منظر عجيب .. فترى عباد الله يأتون فوجا بعد فوج من كل النواحى ، وعلى جسد كل واحد منهم لباس بسيط من نوع واحد ، وقد فَقَدَ الكلُّ صفتَه المميزة ، وعلى لسان الكل شعار واحد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك اللهم لبيك » .

وإنه حين ترى هذا المنظر تتذكر الآية القرآنية : ﴿ ونُفِخَ فى الصُّورِ فإذاهُم من الأجداثِ إلى ربِّهم يَنسلون ﴾[1] . والحقيقة أن اجتماع عرفات خبر مقدَّم لاجتماع يوم الحشر ، بحيث ترى فى هذه الدنيا صورة من صور الآخرة . وقد جاء فى الحديث : « الحج عرفة » .. ويخبرنا هذا الحديث بأهم أهداف الحج وهو أن يتذكر العبد مثوله أمام الله فى ميدان الحشر ، وأن يجرى على نفسه رمزيا وذهنيا ما سيجرى عليه غدا فعلا وحقيقة .

والكعبة هى بيت الله الواحد الأحد ، وقد بناها نبيان جليلان هما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وذكريات حياتهما العليا ووقائع تضحياتهما المدهشة مرتبطة بهذا البيت ، وعبير حياة رسول آخر الزمان وأنشطته الربانية يعطِّر أجواءه .

---

(١) سورة يس : ٥١ .

والمسلم يقرأ عن وقائع هذا التاريخ المثالى للعبودية لله والتضحية من أجله فى الكتب ، هو يسمع منذ صباه – وحتى خروجه للحج – وقائعَ هذا التاريخ لدرجة أنها تصبح جزءا لا يتجزأ من ذاكرته . وتحيا كل هذه الذكريات فجأة حين يصل الإنسان بعد وعثاء السفر ويقف وجها لوجه أمام الكعبة .. فهو يجد نفسه واقفا أمام تاريخ كامل : تاريخ خشية الله ، وحبه ، والتضحية من أجله ، واختياره معبودا بدون شريك ، والاعتراف به قادرا مطلقا ، ومحو النفس من أجله ولمرضاته ..

إنك تجد تاريخا ربانيا عظيما كهذا مجسَّدا فى صورة الكعبة ، فترى هذا التاريخ مكتوبا على الأحجار والرمال .. ويهتز عقلك بهذه التجربة التى تذيب قلبك وتحوِّلك إلى إنسان جديد تماما .

وكنت قد كتبت فى رحلتى للحج سنة ١٩٨٢ :

« كنا نقيم بشارع إبراهيم الخليل القريب جدا من الحرم ، ولذلك كنتُ أقضى معظم وقتى داخل الحرم ما عدا أوقات الأكل وفترات النوم القصيرة . وكانت وتيرتى كل يوم أن أتوضأ بماء زمزم عند باب الهجرة ثم أشرب من مائه حتى أرتوى ثم أدخل الحرم .. وكنت أذهب فى معظم الأوقات إلى الجزء العلوى من الحرم لأنه كان أكثر سكونا لخلوه النسبى من الزحام . وكنت أصلى هناك وأتلو القرآن وأنظر إلى الكعبة وأتذكر الله .. وكانت الساعات تلو الساعات تمر هكذا بدون أن أشعر بمرور الوقت . ومهما كان الوقت متأخرا إلا أننى كنت أشعر – عند العودة من الحرم – أن نفسى لم ترتو بعد ، والكيفية التى تمر على قلب الإنسان وهو جالس أمام الكعبة لا يمكن بيانها بالكلمات » .

---

(١) سورة يونس : ٥١ .

الراحة فى المعاناة

يتجمع أناس من كل أنحاء العالم خلال الحج ويتأذى الناس بعضهم من البعض الآخر مرة بعد أخرى خلال الحج ويجد المرء نفسه فى مواقف تشق على نفسه . ولو توجه المرء فى موقع كهذا إلى ربه لتغيرت حاله وستتحول أمرُّ التجارب إلى أحلاها عنده .. والشيء الذى يعطيه الرزق النفسانى فى الأحوال العادية سيتحول إلى الرزق الربانى فى مثل هذه الحالة .

وعلى سبيل المثال : أنت واقف تصلى فى المسجد الحرام فإذا بطوفان من الناس يزحف ولا يجد متسعا من المكان فيقف الناس أمامك يصلون وأنت لا تجد متسعا حتى للركوع والسجود بصورة سليمة . ولو توجهت ببصرك إلى أولئك الناس فلن تجد فى نفسك إلا مشاعر الغضب والبغضاء .. ولكن أمرك سيتحول إلى شيء آخر تماما لو بدأتَ تحاسب نفسك فى هذه الحالة ، فقلت : يارب تقبل منى هذه الصلاة على ما فيها من نقص لأن صلواتى الأخرى التى أظنها صحيحة فى ظاهر الأمر هى ضعيفة وناقصة كصلاتى هذه .. ولو حول الإنسان ذهنه على هذا النحو فستختلف حاله تماما . والحدث الذى يغذّى عامة الناس بالغضب والبغضاء سيعطيهم غذاء القرب الإلهى فى مثل هذه الحالة .

وهكذا تحدث مختلف التجارب المريرة خلال الحج .. مثل زحام البشر عند رمى الجمرات وغيره من المناسبات ، وشدة الحر بمنى وعرفات ، وتدافع الناس لأجل الماء .. وتقع أحداث وتجارب كثيرة خلال رحلة الحج ، ولو ركّزتَ بنظرك على ذلك الحادث وحده فستثور فى نفسك نوبات الغضب والتوتر . أما لو بدأتَ تفكر فى أنه لو كانت مشكلات هذه الدنيا الصغيرة مزعجة إلى هذا الحد فكيف ستكون مشكلات يوم القيامة ؟ ... فستجد من فورك أن الشيء الذى كان يزعجك هو عينه مبعث الراحة فى نفسك ورحمة من ربك تظللك .

رحلة غير عادية

وقد كتبت فى رحلتى المذكورة للحج فى معرض انطباعاتى : « خرجت زائرا بعض البلدان سنة ١٩٨٢ ، ولم يكن الحج فى برنامج زيارتى ، ولم يكن حتى يجول فى خاطرى حينئذ أن أتوجه إلى الحجاز لتأدية الحج تلك السنة . وحين ذهبت إلى بلد أفريقى وجدت هناك صديقا كريما ، وفجأة توفرت أسباب سفر الحج .. وحدث لى فى هذه القضية ما يصوّره أحد شعراء الأردية فى بيت شعر له يمكن ترجمته كالآتى :

اسأل موسى عن أحوال عطايا الرب

فهو يذهب باحثا عن نار ، ويفوز بالنبوة ..

« وكان من باب الحرمان أننى لم أكن قد خططتُ ، بعد ، لرحلة الحج . لقد خرجت من أرض الوطن فى سفر آخر ولكن الله تعالى أوصلنى بصورة غريبة — عبر رحلة فى آسيا وأوربا وإفريقيا — إلى أرض الحرم لأنعم بالحج . كنت حاجا ولكن الله تعالى وحده الذى هيّأ لى أسبابَ الحج .. فليس لأحد آخر يد فى هذا السفر . ووصلت فى نهاية الأمر إلى الحرم ووقع بصرى على الكعبة فكان منظرا لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه . فأن تنظر إلى الكعبة وتجد نفسك فى رحابه تجربةٌ يعجز قلمى عن التعبير عنها . ومرت بقلبى كيفية عجيبة بهذه النعمة التى لم أكن أتوقعها فخرج من لسانى : « يارب ، لم أخطط فى حياتى إلى اليوم لرحلة الحج ، أى أننى كنت راضيا أن أموت بدون الحج . فما أعظم إحسانك أنْ أنقذتنى من هذا الحرمان الذى لا يوصف بكلمات » ..

وهذه الانطباعات فى ظاهر الأمر هى انطباعات حاج فى لحظات خاصة ، ولكن ينبغى أن تكون هذه هى انطباعات كل حاج ، فعليه أن يدرك أن حجه إنما هو بتدبير من الله تعالى .. وعليه عندما يجد نفسه فى رحاب الحرم أن يشعر

بأن الله وحده أوصله إلى هنا ، فقد خرج كمسافر عادى من وطنه ، والآن هو ضيف الله فى بيته . ولم يقطع الحاج إلا المسافات المادية ، ولكنه حلّ فى بيئة تفيض بالبركات الإلهية الربانية . ولم يكن لديه إلا الحرمان لكن الله تعالى برحمته الخاصة حول حرمانه إلى إنعام .

العطاء بقدر الكفاية

الكعبة علامة من علامات الله على وجه الأرض . لقد وفّر الله هنا أسبابا تاريخية فلا يبقى زائر لها بدون أن يتأثر بها . وهو المكان الذى تعانق فيه الأرواح الضالة ربَّها . وهنالك تفيض عيون العبودية من القلوب المتحجرة ، وتشاهد العيون العمياء تجليات ربها .. ولكن مبدأ « العطاء بقدر الكفاية » يجرى فى هذا العالم ، ولا يظفر بالعطاء إلا من يحمل الكفاية لتلقيه . أما عديمو الكفاية فلا يعدوا أن يكون حجهم سياحة ، فهم يذهبون إلى هناك ليرجعوا كما كانوا ...

وكتبت فى رحلتى المذكورة :

« المناظر الربانية التى شاهدتها هناك لا سبيل إلى بيانها ، والمناظر البشرية التى رأيتها هناك ، لا سبيل إلى وصفها كذلك .. فقد رأيت الناسَ مشغولين فى تجاذب أطراف الحديث فيما بينهم ، أو شاهدتهم منهمكين فى شراء الحاجات الدنيوية ، بينما وجدت البعض الآخر منهم وهو يقوم بإظهار عاطفته الدينية الجياشة بدفع الآخرين ليخلو له المكان بينما مثل هذا السلوك لا يجوز أصلا فى الحج .

« والمناظر الربانية تملأ الجو هنا لكى ينهمك فيها الإنسان .. ولكن معظم البشر المجتمعين هنا منهمكون فى المناظر البشرية . والملائكة تنزل هنا لكى يناجيهم البشر ولكن الناس يناجون بعضهم البعض . والآخرة معروضة هنا للبيع ولكن الناس يتساقطون ليشتروا الدنيا . وحيث كان ينبغى أن يبقى الإنسان فى

الخلف خشية من الله[1] ، يتدافع الناس إلى الأمام ليظهورا مهارتهم فى سبق الآخرين » .

بعض الانطباعات

وكتبت كذلك فى رحلتى هذه للحج :

« قمنا بأداء طواف الوداع مساء ٤ أكتوبر ١٩٨٢ ، وتوجهنا إلى المدينة ليلا . وكانت كيفية عجيبة تنتابنى عندما خرجت من الحرم بعد هذا الطواف ، فكنت ألتفت إلى الخلف مرة بعد أخرى لألقى نظرة أخرى على بيت الله الحرام . كانت قدماى تسيران إلى الأمام ولكن قلبى كان مشدودا إلى الخلف . وكنت أشعر أننى أخرج من وطنى الحقيقى الى وطن غريب .. وبهذه الكيفيات غادرت المسجد الحرام متوجها إلى المدينة ليلة ٤ أكتوبر .

« وكان دخولنا إلى الحرم المدنى مؤثرا غاية التأثير ، فقد مرّ أمامى التاريخ الكامل للإسلام ورسول الإسلام .. وخرج الدعاء الآتى من شفتىّ : ياربّ أصلّى وأسلّم على رسولك ، اكتبنى فى أمة رسولك واجعلْنى فيمن سيشفع لهم يوم القيامة ممن ستقبل فيهم الشفاعة وتنجيهم من عذاب الجحيم وتدخلهم الجنة ..

« وكنا نقيم فى فندق بالقرب من المسجد النبوى ، وكان صوت الأذان والتكبير يصل إلى داخل غرفتنا . ووُفّقت إلى أداء الصلوات عدة أيام فى المسجد النبوى ، ولكن هجوم المصلين لم يكن يسمح لنا أن نؤدى الصوات فى سكون . وكنت أعانى من هذا فى الحرم المكى خلال الأيام الأولى إلى أن بدأت أصلى فى طابقه العلوى حيث كنت أتمتع بسكون كبير .. ولا نعرف لماذا لم يبنوا دورا علويا

---

(١) بعض الناس يفهم حث الرسول ﷺ على الصلاة فى الصف الأول على أنها معركة يجب أن يسبق فيها لكن الحقيقة أن المراد الذهاب للصلاة مبكرًا بدون سباق وتخط للرقاب وتكدير للآخرين .

للمسجد النبوى أيضا لكى يلجأ إليه الإنسان من الزحام[1] .

« والمسجد النبوى واسع وفخم بصورة غير عادية ولكنه ، على سعته ، لا يكفى للأعداد المتزايدة من الزوار .. ولم يكن منظرا سعيدا لشخص مثلى أن يرى الدكاكين والفنادق تحيط بالمسجد ماعدا جانبا واحدًا أقاموا عليه بناء أشبه بالخيام لأداء الصلاة . ليت المسجد النبوى كان محاطا بالميادين المفتوحة من كل جانب لتظهر عظمته . وهذا هو عين ما يجده المرء حول الحرم المكى .

« وتنشر الحكومة السعودية إحصائيات الحجاج كل سنة . وحسب ما نشرته فى إحصائياتها لسنة ١٤٠٢ هـ فقد بلغ عدد حجاج الخارج ٨٥٣,٥٥٥ حاجا . ومن البلاد التى جاء منها عدد كبير من الحجيج :

١ – مصر ٩٨,٤٠٨

٢ – إيران ٨٩,٥٠٣

٣ – نيجيريا ٨١,١٢٨

٤ – باكستان ٧٢,٨٤٤

٥ – أندونيسيا ٥٧,٤٧٨

٦ – تركيا ٥٣,٧٨٨

٧ – الجزائر ٤٠,٤٠٠

٨ – سوريا ٢٧,٨٩٠

٩ – الهند ٢٦,٢٢٩

« وقد هيّأت الحكومة السعودية الكثير من أفضل التدابير لتسهيل المناسك ،

---

(١) كتب هذا الكلام قبل قرار الحكومة السعودية حفظها الله بتوسعة المسجد النبوى توسعة هائلة يجرى العمل فيها على أشده الآن .

الأمر الذى سهّل الحج كثيرا فى العصر الحاضر . ولكن هناك شىء يبدو أنه لا حلّ له ، وهو هجوم الحجاج ، وخصوصا تدافع الناس على بعضهم البعض عند رمى الجمرات ، الذى يعتبر أمرا مؤسفا للغاية . وكثير من الناس يهجمون فى وقت واحد لرمى الشيطان بالجمرات ولكن يبدو أنهم توّاقون إلى تحطيم الإنسان الحقيقى أكثر منه إلى رجم الشيطان الرمزى . ولم أر فى حياتى مثالا أسوأ من هذا التجاهل لأمر إلهى فى سبيل تأدية أمر إلهى آخر . وقد رأيت عددا من الناس بالجبس حول أيديهم وأقدامهم لإصابتهم ، ثم شاهدت حاجا يتساقط أمام تدافع الحجاج ويموت تحت أقدامهم . وأخبرنى الناس أن وقائع كهذه تحدث كل سنة . فما أعجب هذا الحج الذى يتدافع فيه الناس لرمى عدو رمزى فيقتلون إنسانا حقيقا » .

تجديد الإيمان

ويمكن اعتبار الحج تجديدًا للإيمان .. فكأن الحاج يبايع ربَّه مباشرة عندما يصل إلى مكة ويطوف حول الكعبة مرددا « لبيك اللهم لبيك .. » .

وسقوط الذنوب السابقة على الحج يقع طبقا لنفس القانون الذى يُسقِط الذنوب التى يرتكبها المرء قبل إسلامه . وتبدأ هذه المعاملة الإلهية مع العباد عند إيمانهم الأول وتكتمل بعد الإيمان الثانى المتمثل فى الحج . فإذا كان الإيمان الأول إيمانا بصورة غير مباشرة فالإيمان الثانى إيمان مباشر . ويكفى الإيمان الأول لتطهير العبد من تبعات ذنوبه السابقة ولكنه يكتمل بالإيمان الثانى لو كان العبد مستطيعا رحلةَ الحج . ولعله لهذا ورد فى الحديث الشريف : « من استطاع أن يحج ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا »[1] .

---

(١) رواه الترمذى : فى أبواب الحج ، باب ما جاء فى التغليظ فى ترك الحج .

الفصل الخامس

الحج والوحدة الإسلامية

الفصل الخامس
الحج والوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية جانب من جوانب الحج . فالمسلمون من كل أنحاء العالم يجتمعون فى مكان واحد ويؤدون معا مناسك الحج . فالحج هو الاجتماع الدينى العالمى للمسلمين . ولنتدبر معا الآيات القرآنية التالية :

- ﴿ وإذ جَعلْنَا البيتَ مَثابةً للناسِ وأمنًا ﴾[1] .
- ﴿ إنَّ أولَ بيتٍ وُضعَ للناسِ لَلَّذى ببكَّةَ مباركًا وهدًى للعالَمينَ ﴾[2] .
- ﴿ جعلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِيامًا للنَّاسِ ﴾[3] .
- ﴿ فاجعلْ أفئدةً مِن الناسِ تَهْوى إليهِم ﴾[4] .
- ﴿ وأَذِّن فى الناسِ بالحَجِّ يأتوكَ رِجالًا وعلى كلِّ ضامرٍ يأتِينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ ﴾[5] .

المركز العالمى للتوحيد

نعرف من خلال هذه الآيات أن الهدف الإلهى وراء بناء إبراهيم للكعبة كان إعداد مركز لأهل التوحيد يؤمه الناس من قريب وبعيد . وهيَّأ الله أسبابا تاريخية حول الكعبة لتنجذب إليها قلوب الناس فيقصدوها جماعات وأفواجا .. فبيت الله

---

(١) سورة البقرة : ١٢٥ .
(٢) سورة آل عمران : ٩٦ .
(٣) سورة المائدة : ٩٧ .
(٤) سورة إبراهيم : ٣٧ .
(٥) سورة الحج : ٢٧ .

هو المركز الإسلامى العالمى إلى يوم القيامة ، وهو مقر الاجتماع العالمى السنوى لكل مسلمى العالم ، ولذا تقول الروايات إن الله تعالى أمر إبراهيم بأن ينادى فى الناس بأن يأتوا هذا البيت زائرين فقال يا ربّ كيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم فقال : نادِ وعلينا البلاغ . فقام على الحجر وقال : يا أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجّوا إليه . فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وسمع من فى الأرحام والأصلاب وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك »[1] . وهذا لا يعنى أن كل الناس على كل وجه الأرض ممن كانوا موجودين فى ذلك الوقت وممن ولدوا فى المستقبل سمعوا صوت إبراهيم فى نفس ذلك الوقت ، بل كان صوت إبراهيم نداءً رمزيا . لقد سمع الناس كلهم هذا الصوت بدون شك ولكنه كان سمعا بصورة رمزية وليس بصورة فعلية .. فقد كان النداء الإبراهيمى بدءا لواقعة مستمرة لا تنقطع . فأطلق إبراهيم نداءه فى عصره ، وأخذه الآخرون من بعده فأسمعوه لمن فى عصرهم ، وهكذا استمر هذا العمل جيلا بعد جيل ، وعندما جاء عصر الصحافة والإذاعة انتشر هذا الصوت على مدى أكبر ، فجاوز الجبال والبحار حتى تلاشى الخوف من أن يوجد على وجه البسيطة من لم يصله هذا النداء الإبراهيمى .

إعلان عام

والحج هو المقام الطبيعى لإعلان القضايا الاجتماعية ، ولذلك أُعلنت أهم أمور الإسلام فى مناسبات الحج ، ومن أمثلته إعلان البراءة من الكفار والمشركين والذى تم بعد نزول سورة التوبة .

وكانت مكة قدفتحت فى رمضان سنة ٨ هـ . ووقعت ثلاث حجات بعد ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير : تفسير الآية ٢٧ من سورة البقرة .

فى حياة الرسول ﷺ . ولم يقم رسول الله بالحج خلال السنتين الأوليين ، بل أدى فى السنة العاشرة حجته المعروفة عموما بحجة الوداع ثم توفى إلى رحمة الله .

وكان رسول الله ﷺ قد عيّن أبا بكر الصديق أميرا على الحجاج سنة٩ هـ . فتوجه أبو بكر الى مكة مع مجموعة من الصحابة ، وبعد خروجه من المدينة نزل الجزء الأول من سورة التوبة الذى أمر الله فيه بأن يعلن الرسولُ براءةَ الله ورسوله من المشركين ، وأعطى له مهلة أربعة أشهر لوضع هذا الإعلان موضع التنفيذ . وقد ورد فى الروايات بهذه المناسبة :

لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ ، وكان قد بعث أبابكر ليقيم الحج للناس فقيل يا رسول الله : لو بعثتَ إلى أبى بكر ؟ فقال : « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ، ثم دعا عليا فقال : « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » .. ويقول على كرم الله وجهه إنه طاف بمكة معلنا إعلان البراءة بين الجموع الى أن « صحل » صوته[1] .

لقد نزل حكم البراءة من مشركى الجزيرة العربية وكفارها فى المدينة إلا أنه أعلن بمكة خلال موسم الحج . وهذا دليل واضح على أن موسم الحج بمكة هو المكان الصحيح لإعلان كل القرارت الإسلامية الهامة . فالحج هو المركز الاجتماعى لكل مسلمى العالم ، وهم يجتمعون هنا وعليهم أن يعلنوا هنا قراراتهم الكبرى وعليهم أن يضعوا هنا الخطط العالمية للأعمال التى تجب عليهم تنفيذا لأوامر الله ورسوله .

والمثال الواضح الثانى لهذا هو خطبة حجة الوداع ، التى هى أهم خطبة فى

---

(١) تفسير ابن كثير ، تفسير الآية ٣ من سورة التوبة .

حياة الرسول ﷺ .. فمن خلالها أراد أن يعرِّف الناس بمقتضيات الدين الأساسية بصورة نهائية قبيل وفاته ، ولم يعلنها الرسول ﷺ فى أى مكان آخر بل أخرها الى أن حان الحج سنة ١٠ هـ . ولذلك قال فى مستهل الخطبة : « أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا »[١] . ثم أخبر رسولُ الله الناسَ بكلِّ أمور الدين الأساسية ثم سألهم فى نهاية الخطبة : ألا هل بلّغتُ ، ألا هل بلّغتُ . فشهد الناس بنعم ، قد بلّغتَ .

وكانت الجزيرة العربية قد دانت له بعد فتح مكة سنة ٨ هـ . وكان بإمكان رسول الله أن يتوجه الى أى مكان آخر غير مكة ليذيع هذا الإعلان . وكانت المدينة مركز الإسلام السياسى حينئذ . وكان بإمكان رسول الله أن يستقدم الناس الى المدينة ليقوم بهذا الإعلان أمامهم ولكنه لم يسلك هذه الطرق بل انتظر الحج ، فأعلنها بعد وصوله إلى مكة .. وهكذا تبيَّن سنةُ رسول الله أن الحج هو المكان الأنسب لإعلان كل الأمور والقرارات الهامة فى الإسلام .

أسلوب فطرى

ويعود السبب فى هذا الاختيار إلى أن الإسلام يفضل الأسلوب البسيط والطبيعى لكل الأمور . وعلى سبيل المثال : فإن من أعمال الحج السعى بين الصفا والمروة . وهنا ثار سؤال « الترتيب » ، أى هل يبدأ السعى من الصفا أو من المروة ؟ . وحين قام رسول الله بالسعى قال : « أبدأ بما بدأ الله به » وكان يشير بذلك إلى الآية القرآنية التالية ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾[٢] ، وهى الآية التى تأمر الحاج بالسعى بين الصفا والمروة وهى تقدِّم الصفا على المروة . فجعل رسول الله ترتيب العمل على غرار الترتيب القرآنى البيانى لكى لا يضطر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/٦٠٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٨ .

الإنسان الى حفظ ترتيبين : أحدهما فى القرآن وآخرهما فى مناسك الحج .

وقد جعل الحج مكان الإعلان مراعاةً لهذه الحكمة الطبيعية . فيجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم لأداء شعائر الحج كل سنة وسيظلون يجتمعون ما بقيت للدنيا قائمة ، ولذلك جُعِل الحج مكانَ الإعلان الاجتماعى لكى يكفى اجتماع واحد لتحقيق هدفين فى آن واحد .

ومن فوائد الإعلان الاجتماعى عند الحج أن مثل هذا الإعلان يكتسب نوعا من القدسية .. فإن الحج هو أقدس مكان فى نظر المسلمين والإعلان الذى يتم عند الحج يكتسب نوعا من القدسية والاحترام فى أنظار الناس .

اجتماعية الحج

الحج أهم عبادة إسلامية تؤدى كل سنة ، وهو يقع فى الشهر الأخير من التقويم القمرى والمعروف بذى الحجة . وتؤدى شعائر الحج فى بيت الله بمكة وبعض الأمكنة المحيطة بها . وتعتبر هذه العبادة جامعة لكل العبادات الأخرى لأنها تحتوى على عدد من الجوانب العبادية . ومنها الجانب الاجتماعى ، فهذا الجانب بارز بروزا كبيرا فى عبادة الحج . وقد قالت دائرة المعارف البريطانية : « يؤدى الحجَّ كل سنة مليونان من الأفراد ، وتؤدى هذه العبادة دورَ قوة توحيدية فى الإسلام بأنها تجلب أتباعا له من مختلف الجنسيات ليجتمعوا معا فى احتفال دينى »[١] .

وقد ورد فى القرآن فى معرض الأمر بالحج : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[٢] .. والمثابة مرادفة لكلمة « المركز » بمعناها الحديث ، أى المكان الذى يجتمع فيه الناس ويكون مرجعا يرجعون إليه وجامعا يجمعهم ويصونهم من

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : ٨٤٤/٤ . طبعة ١٩٨٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٥ .

التشتت .

ويأتى الناس لعبادة الحج من كل أنحاء العالم ومن كل الأجناس ، ويبلغ عددهم كل سنة نحو مليونين ونصف مليون ، حتى إنك لترى وجوه البشر فى كل مكان بمكة وضواحيها أيام الحج ، وهم يتحدثون بلغات مختلفة ، وأشكالهم ووجوههم تختلف كذلك ، ولكن يتحد تفكيرهم بعد المجىء هنا ، فالكل يسير نحو هدف مشترك ، حتى إنه ليبدو أن هناك مغناطيسا ربانيا يجذب كل هؤلاء الى نقطة واحدة مشتركة .

وحين يقترب هؤلاء الناس من مقام الحج يتخلّون عن ملابسهم المحلية ويرتدون لباس « الإحرام » المشترك الذى يتكون من ردائين أبيضين ، يتّزر الحاجُّ أحدهما ويضع الآخر فوق كتفه وظهره . وهكذا ترى مئات الألوف من البشر فى وضع واحد ولباس واحد .

ويجتمع هؤلاء الناس فى جبل عرفات الفسيح فى آخر الأمر بعد أداء مختلف شعائر الحج .. وما أغربه من منظر .. إنه ليبدو أن كل الفروق بين البشر امّحت فجأة ، وتلاشى البشر فى وحدة الله ناسين كل خلافاتهم . لقد اتحد الناس هنا كوحدة إلههم .

ولو نظرت إلى الحجاج من أعلى جبل وهم مجتمعون فى ميدان عرفات الكبير بملابس الإحرام فسترى أن الإنسان قد اتحد على اختلاف لغاته وألوانه ومراتبه وجنسياته ، وترى الشعوب والقوميات تنصهر فى قومية واحدة جامعة .. والحقيقة هى أن الحج أكبر مظاهرة اجتماعية من نوعها ولا تجد لها مثالا فى أى مكان آخر من العالم .

والكعبة قبلة المسلمين .. يتجه إليها المسلمون كل يوم خمس مرات فى صلواتهم . فالقبلة العبادية لكل المسلمين واحدة . وتكون هذه القبلة حقيقة

تصورية فى الأحوال العادية . ولكنها تصبح حقيقة مرئية عندما تصل إلى مكة فى أيام الحج .. وعندما يأتيها المسلمون من كل أنحاء العالم ويصلون متجهين إليها من كل ناحية فترى بصورة محسوسة أن قبلة مسلمى العالم جميعًا قبلة واحدة مشتركة بالفعل .

والكعبة بناء عالٍ مكعّب ، ويمشى الناس حوله فى دائرة . ويطلق على هذا « الطواف » وهم يصطفون ويصلون حولها فى دائرة وتكون الكعبة مركز كل اتجاهاتهم خلال الحج . فالحج عبادة تعطينا دروسَ الاجتماعية المركزية بمختلف شعائره ومناسكها .

تاريخ الحج

يرتبط تاريخ الحج بحياة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وليس المسلمون وحدهم هم الذين يؤمنون بهما بل يعتبرهما أتباع الأديان الكبرى الأخرى أيضا من أجلّ الرسل . وهكذا يتمتع عمل الحج بقدسية وعظمة تاريخية لا يتمتع بها عمل دينى آخر فى العالم .

وكان إبراهيم عليه السلام قد ولد فى العراق القديم ، وإسماعيل ابنه . وكان العراق بلدا متحضرا فى ذلك العصر ، وكان آذر – والد إبراهيم وجدّ إسماعيل – من كبار المسئولين فى الحكومة العراقية آنذاك ، وكانت فرص الرقى مفتوحة أمام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى العراق إلا أنهما لم يحتملا نظام العراق القائم على الشرك ، فهجرا ذلك البلد الخصيب الذى كان مركز الشرك لكى يعبدا الله الواحد الأحد وتوجها إلى الصحراء العربية الجدباء التى لم يكن شىء فيها يحول بين الخالق ومخلوقه .. وهنالك قاما ببناء بيت الله .

ويمكن أن نعبر عن عمل إبراهيم وإسماعيل بكلمة أخرى فنقول : إنهما جعلا الله الواحد مرجعهم الأوحد ، بدلا من التوجه إلى آلهة المشركين ، وقاما ببناء بيت

الله « الكعبة » ليكون مركزا عالميا لعبادة الله الواحد الأحد . وهذا المركز هو مكان أداء مناسك الحج أيضا .

ولننظر الآن فى بعض جوانب هذه المناسك . فالكلمة التى يرددها الحاج أكثر من غيرها خلال الحج هى « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، والله أكبر ولله الحمد » .

إن جعل الحاج يردّد هذه الكلمات مرة بعد أخرى يهدف إلى توليد نفسية معينة فيه ليعي أن العظمة لله وحده . ويجب على كل جوانب العظمة الأخرى أن تنحنى أمام هذه العظمة الكبرى وأن تتبعها . وهذا الشعور هو أكبر الأسرار الاجتماعية ، فلا تقوم الحياة الاجتماعية والوحدة حيث يظن الكل أنه عظيم ، ولا توجد غير الوحدة والاجتماعية حيث يتنازل الناس عن عظمتهم الفردية لأجل واحد منهم .. فالفرقة عَلَمٌ على التصارع على العظمة ، والوحدة هى وحدة العظمة .

والطواف من أهم أركان الحج وكل الذين يجتمعون بمكة فى موسم الحج يبدءون بطواف الكعبة ، وهو إقرار عملى بأن الإنسان سيجعل نقطةً واحدة محورَ كل جهوده ، وأنه سيتحرك فى دائرة واحدة .. وهذه هى المركزية التى نشاهدها على المستوى المادى فى النظام الشمسى فكل سيارات النظام الشمسى « تطوف » حول مركز واحد هو الشمس .. وهكذا يعلّمنا الحج أن نجعل عبادة الله الحقة الشاملة مركز كل حياتنا فندور حولها وفى دائرتها ، ولا نخرج عنها ولا عليها .

ثم يسعى الحاج بين الصفا والمروة ، فينطلق من جانب الصفا ثم يعود إليه . وهو يفعل هذا سبع مرات . وهذا يعلّمنا بصورة عملية أن يكون مسعانا فى حياتنا العملية داخل حدود معينة ، فلو لم تكن لنا حدود أو ظللنا نتجاوزها فسينفلت بعضنا إلى جانب بينما سيضيع البعض الآخر منا فى جانب آخر . ولكن عندما نضع حدودا معينة لمسعانا فنحن سنعود دوما إلى حيث إخواننا

الآخرون .

وهكذا تدور مناسك الحج الأخرى .. فهى تعلّمنا بأسلوب أو بآخر أن نتحد وأن نعمل معا . فهذه المناسك مظاهرة عملية للعمل المتناغم .

مركز الوحدة

والحج فى حقيقته مسيرة نحو الله . فعامة البشر سيمثلون أمام ربهم بعد الموت ، ولكن المؤمن يمثل بين يدى ربه قبل أن يأتيه الموت .. فحضور الآخرين أمام الله حضور المجبور الذى لا حيلة له . أما حضور المؤمن فباختياره . وهذا هو المنظر الذى يقدمه اجتماع الحجاج من كل أنحاء العالم فى ميدان عرفات ، ولعله لهذا قال رسول الله ﷺ : « الحج عرفة » .

إلا أن الحج عبادة جامعة أودع الله فيها فوائد أخرى كثيرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ومن هذه الفوائد أنه وسيلة للوحدة الإسلامية العالمية . فالكعبة هى النقطة المركزية التى تنتظم حولها دائرة المؤمنين العبادية حول العالم .

والجانب الحقيقى لحضور عرفات يتعلق بالآخرة ، إلا أن السرّ العميق لوحدة أهل الإسلام كامن فيه فى الوقت نفسه ، وذلك لأن الوحدة هى التجمع حول مركز واحد . وحين يتجمع المسلمون حول ربهم خلال الحج فهم يكتشفون كذلك سر تحويل كثرتهم العددية إلى وحدة . إنهم يكتشفون أسرار دنياهم بينما هم يتلقّون أسرارَ أُخراهم .

° ° ° °

توجد أمامى على الحائط صورة الكعبة ، بيت الله ، ذلك البناء المعروف الذى يتوسط المسجد الحرام الفسيح . ونرى فى الصورة مئات الألوف من البشر يركعون أمام ربهم فى دائرة .. هذه هى الصلاة الاجتماعية السنوية التى تؤدى خلال الحج ويشترك فيها نحو مليونين ونصف مليون مسلم من كل أنحاء العالم . إنه حدث

مشهود ويمكن التقاط الصورة له .

ولكن الذين يتخذون من الكعبة قبلةً ليسوا هم كل من نراهم فى المسجد الحرام . فهناك عدد هائل من المسلمين خارج الحرم وفى كل مكان على وجه الأرض . فالمسلمون فى كل أنحاء العالم يتجهون خمس مرات كل يوم نحو الكعبة لأداء صلواتهم . وتظل هذه الدائرة – التى نشاهدها داخل المسجد الحرام – تتسع حتى تشمل الكرة الأرضية كلها .

ولو تخيلتَ فسترى أن الذى يحدث بصورة محدودة فى صحن المسجد الحرام يحدث كل يوم على مستوى أعظم وأكبر فى كل أنحاء العالم . فالمسلمون فى كل مكان ، ومن كل ناحية ، يتجهون صوب الكعبة خمس مرات كل يوم لأداء الصلوات . وهم يقفون فى كل أنحاء العالم حول الكعبة من جوانبها الأربعة .. أى أن المسلمين يقيمون حولها دائرة كاملة على وجه الأرض خمس مرات كل يوم ، فتكون الكعبة فى الوسط بينما المسلمون يؤدون صلواتهم حولها فى دائرة من كل ناحية على وجه البسيطة .. وهذه ناحية اجتماعية عظيمة لا مثيل لها فى أية جماعة دينية أو غير دينية فى العالم .

وهذا هو النظام العظيم الذى قام بواسطة آلاف السنين من التاريخ . ولو كان فى المسلمين شعور حقيقى فأخذوا من الحج الدرس الذى يهدف إليه هذا النظام العظيم لوقعت النهضة الحقة فى حياة المسلمين ولانـضم كل فرد منهم إلى هذه الهيئة العالمية الاجتماعية المقدسة .. والحقيقة هى أن الكعبة رمز توحيد الله على وجه الأرض وهى فى الوقت نفسه رمز وحدة المسلمين واجتماعيتهم .

ومن الجوانب الظاهرة لهذا النظام العظيم الذى يربى على الوحدة أنه يطلب من الكل أن يتخلوا عن ملابسهم الخاصة وأن يرتدوا لباسا واحدا بسيطا . فيزول هنا الفرق بين الملك والرعية ، وتختفى هنا امتيازات الملابس الغربية والشرقية ، ويبدو

الناس فى لباس الإحرام المشترك وكأن لكل منهم وضعا واحدا .. فالكل عباد الله ولا وضع لهم سوى وضع العبودية لله .

وتنتهى مناسك الحج المقررة فى مكة إلا أن معظم الحجاج يتوجهون إلى المدينة بعد الفراغ من الحج أو حتى قبله لو كان لديهم متسع من الوقت .. وكانت المدينة تسمى (يثرب) فى قديم الزمان ، وجعلها النبى ﷺ مركز دعوته فى آخر حياته ، فأصبحت تدعى بـ « مدينة النبى » منذئذ و (المدينة) اختصار لتلك التسمية . ويوجد فى المدينة المسجد الذى بناه رسول الله ﷺ . وتنتشر حوله آثار حياته القرآنيه . وذهاب الحجاج إلى المدينة ـ مع أنه ليس شرطًا فى الحج ـ درس لهم للمزيد من الوحدة والاجتماعية . فهم يدركون فى المسجد النبوى أن زعيمهم واحد وهم يعودون بإحساس بأنه مهما كانت الفروق الجغرافية والقومية بينهم ، إلا أنه يجب عليهم أن يسلكوا طريق النبى الواحد . وعليهم أن يجعلوا هذا الوجود المقدس وحده زعيما وقائدا لحياتهم . ومهما بلغ عددهم ومهما تمايزوا عن بعضهم البعض إلا أن إلههم واحد ورسولهم واحد كذلك .

الفصل السادس
دروس التقوى والعفة

الفصل السادس

دروس التقوى والعفة

من الآيات التى وردت حول الحج الآية التالية :

﴿ الحَجُّ أَشهرٌ مَّعْلوماتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيرٍ يَعْلَمْه اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوى واتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾[1] .

وكان الناس يحجون فى الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن حجهم كان مهرجانا قوميا بدلا من أن يكون عبادة لله الواحد . فكان يجرى خلال الحج فى تلك الأيام كل ما يحدث فى المهرجانات القومية عموما . وقد ألغى الإسلام كل هذه الأشياء .

وهكذا أمر الإسلام باجتناب الرفث والفسوق والجدال اجتنابا كليا خلال أيام الحج . ويعنى الرفث الانشغال بالأمور الشهوانية ، أما الفسوق فيعنى عصيان الله تعالى ، بينما يعنى الجدال المخاصمة بين الناس .. وهذه الأشياء ممنوعة فى الأحوال العادية إلا أنها محرمة بصورة خاصة خلال الحج . ومن أهم أسبابه أن فرص هذه المحرمات تتوفر أكثر خلال السفر واجتماع الناس . ولو لم يكن شعور المرء واعيا بصورة كاملة إلى مساوئ هذه الخصال فقد ينزلق إليها بوعى أو بدون وعى .

والمؤمن هو الذى يعيش لأجل الهدف بدلا من أن يعيش لأجل الشهوة . وهو الذى يتخذ التدابير لكى يتقى عصيان الله فى شئونه ، وهو الذى يبتعد عن

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

الجدال والخصام فى الحياة الاجتماعية .. ويتحلى المؤمن بهذه الخصال فى كل الأوقات إلا أن هذه الأشياء علامة تحدد بصورة واضحة ما إذا كان المرء قد أصبح « حاجا » بالفعل أم لا . ولو كان المرء متمتعا بكيفيات التقوى التى ينبغى أن تطرأ عليه خلال رحلة الحج ، فمن المستحيل أنه سيقع فى هذه المعاصى فى حياته التى تلى الحج .. فهذه الأشياء تنفى التقوى وهى توجد حيث ينعدم التقوى . وحيثما وُجدت التقوى فهذه الأشياء ستنعدم فيها لا محالة .

مزيد من الاهتمام

ما هو ممنوع خلال الحج ممنوع فى الأيام الأخرى أيضا . ومنع هذه الأشياء خلال الحج يهدف إلى تربية خاصة . فيجرى تنفيذ هذه الممنوعات الشرعية بصورة مؤكدة خلال الحج لكى يزداد الحاج شعورا بها فيكتسب استعدادًا نفسيا خاصا لاجتنابها فى أيامه العادية .

ويكون المرء منغمسا فى شئونه الخاصة عندما يكون فى بيته وعمله وتجارته وينسى الحقائق الأخرى ، ولذلك يوتى بالمرء إلى المسجد لأداء الصلوات لكى يبتعد بعض الوقت عن بيئته الخاصة ويخلى ذهنه من الأشياء الفانية ويتوجه توجها كاملا إلى الله تعالى . ورحلة الحج أيضا عمل من هذا النوع . فيتم إخراج المرء فى أيام الحج من بيئته المحدودة لمدة طويلة لزيارة مختلف المقامات فى الحجاز . فالحج انقطاع المرء كليا عن بيئته الدنيوية لكى يتوجه إلى ربه توجها كاملا . وتتعلق بالجزيرة العربية آثار وتقاليد دينية عظيمة . ولهذا كانت أنسب مكان لأداء مناسك الحج . فهنالك الكعبة التى تحيط بها القدسية منذ آلاف السنين ، ووقعت على أرضها وقائع تضحية الأنبياء ، وهنا آثار النعم الإلهية على العباد الصالحين ، وهنا الأرض التى تتحلى بآثار حياة آخر الأنبياء وأصحابه الكرام .

وقد اكتسبت مقامات الحج قدسية واحتراما عظيمين بمثل هذه العلاقات

التاريخية . فيتجلى أمام المرء تاريخ ديني كامل عندما يصل إلى هذه البيئة ويكون من الطبيعي أن يشحذ هذا كله حسه الديني . فيبدأ في تنفيذ الفرائض الإلهية بجدية وانهماك .. وقد اختار الله تعالى هذه المنطقة بسبب هذه العلاقات التاريخية الخاصة لكي يجري المرء هنا تمرينا رمزيا ثم يعود إلى بيئته السابقة لكي يعيش حياة أكثر عبودية من ذي قبل .

وهناك ثلاثة أشياء ممنوعة على الحاج بصورة خاصة خلال أدائه مناسك الحج وهي كما يلي :

١ ــ ألا يؤذي الحاج أحدا بلسانه .

٢ ــ ألا يقتل حيوانًا أو يجرحه .

٣ ــ أن يتجنب أشياء اللذة والزينة كقطع الأظافر وتزيين الشعر ، ولبس الملابس المخيّطة واستخدام العطور ، وإقامة العلاقات الزوجية .

الحذر في الكلام

أكثر الأشياء التي يتأذى منها الناس في حياتهم الاجتماعية هو اللسان فلا يجرح عواطفَ الناس شيء قدرَ ما تجرحها ألسنة بعضهم .. ويحدث مرار خلال أيام الحج ، بسبب تجمع عدد كبير من الناس في مكان واحد ، أن تزلّ ألسنة البعض فتجرح مشاعر الآخرين . ولذلك جعل الله تعالى موسم الحج مناسبة خاصة لتربية المسلمين على مراعاة الحذر في الكلام . ومن الأخلاق الإسلامية العامة ألا يؤذي المرء الآخرين بلسانه ولكن الله تعالى جعل هذا الخلق جزءا من العبادة الإسلامية في أيام الحج لكي يهتم الناس به اهتماما كبيرا فيجتنبوا هذا الشر الاجتماعي . وقد قال رسول الله ﷺ : « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، تفسير الآية ١٩٧ سورة البقرة .

وجاء فى القرآن : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[1] . وهذه الأشهر المعلومات هى شوال وذو القعدة وذو الحجة . والمطلوب من الحاج أن يخلو حجه من الفحشاء ومعصية الله والخصام والجدال مع الآخرين . وقد حرّم الله هذه الأشياء التى يعبّرها الإنسانُ عموما بلسانه ، وهى تؤذى الآخرين عندما يستخدم كلمات سيئة فى حقهم أو يخاطبهم بتعبيرات جارحة أو يلجأ إلى الخصام والجدال . وقد حرمت هذه الأشياء كلها خلال الحج لتزداد حساسية الإنسان تجاهها ليعود من رحلة الحج المقدسة وقد شفى لسانه من هذه الأشياء المؤذية للآخرين .

اجتناب العنف

وقد حرم على الحاج بعد الإحرام أن يصطاد الطيور وحيوانات البر ، بل وحرم عليه قبول شيء مما يصطاده غيره . وكذلك حرم عليه نتف شعر الطيور أو مساعدة الآخرين فى الصيد أو إعطاء السكين لذبح حيوان يصطاده غيره . ويجوز للحاج أن يقتل حيوانا مؤذيا كالأفعى ، وله كذلك أن ينحر الأضاحى كجزء من مناسك الحج . أما ما عدا ذلك فحرام على الحاج أن يصطاده أو أن يؤذى أى حيوان خلال رحلته . وصيد الحيوانات جائز فى الأحوال العادية ولكنه محرَّم على الحاج . وهذا فى حقيقة الأمر تنفيذٌ لحكم شرعى عام بقدر كبير من المبالغة . فيجب على الإنسان فى كل الأحوال ألا يقتل إنسانًا وألا يؤذى حيوانا . وهذا حكم شرعى عام مطلوب من كل الناس فى كل الظروف ولكن إطلاقه على حيوانات الصيد خلال الحج يهدف إلى شحذ حسّ الحاج بهذا الحكم العام ، لكى يراعيه مراعاة أفضل عقب عودته من الحج فيعيش مسالما بين الناس فى غير أيام الحج .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

حياة الانضباط

يمكن وصف الحياة المسلمة فى جملة واحدة بأن نقول : إنها أن يعيش المرء حياة منضبطة . ورحلة الحج وسيلة لتربية خاصة على هذه الحياة المنضبطة . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الخاصة من خواص الحج بقوله : « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه »[١] .

فالشيء الذى يجب على الحاج أن يتجنبه بصورة خاصة هو ألا يؤذى بلسانه ويده أحدا آخر . والحج الذى يغفر ما تقدم من ذنوب صاحبه هو هذا الذى لم يستخدم فيه الحاج لسانه أو يده ضد الآخرين .

إنكار الذات

من ممنوعات الحج استخدام أشياء الزينة واللذة المادية . ويبدأ عمل الحج بالإحرام ، ذلك اللباس البسيط الذى يجب على كل حاج أو معتمر أن يلبسه على حدود الحرم . فالإحرام هو أن ترتدى ملابس الفقراء عند زيارة الكعبة .

وهذا هو أول الخطوات الرمزية التى يؤكد الله تعالى بواسطتها على كل عباده بأن كل البشر سواسية ، وأن الأشياء الظاهرية التى يتفاخر بها الناس أو يحتقرون شخصا أو يعظّمون آخر بسببها هى كلها باطلة عند الله . فالعباد سواسية عند الله تماما كما ترى مئات الألوف من الحجاج مرتدين ملابس من نوع واحد خلال أيام الحج . فالإحرام مظاهرة عملية للمبدأ الإسلامى القائل بمساواة البشر . وما على الذين يريدون أن يكونوا من أفضل عباد الله إلا أن يخلعوا عن أنفسهم كل الملابس المزيفة ويرتدوا اللباس الإلهى وحده .

وسئل رسول الله ﷺ عن وصف الحاج فقال : « الشعث التفل »[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، تفسير الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب ما يوجب الحج .

والشعث : المغبرّ الرأس ، المنتقف الشعر ، الحاف الذى لم يدهن[1] والتفل : الذى ترك استعمال الطيب ، من التفل وهى الريح الكريهة[2] . فهذه الكلمات تصف الحاج الحقيقى الذى لا يجد فرصة لتصفيف شعره ، وتنظيف جسده وهو وصف إنسان منهمك فى أداء هدف ما .

وعندما يقف المرء نفسه لهدف ما فهو لا يجد فرصة للتزين والأمر بأن يكون وضع الحاج على هذا النحو هو درس مؤكد ، لكى يقضى حياة هادفة وينشغل بالهدف الإلهى فلا يجد فرصة لتزيين ظاهره وينسى الملذات الوقتية والمقتضيات الشخصية باحثا عن الهدف الأعلى .

وقد جاء فى القرآن فى معرض الأمر بالحج : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإِنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾[3] . وكان العرب فى قديم الزمان يظنون أن الخروج للحج بالزاد من الأعمال الدنيوية وأن الذى يخرج للحج بدون الأمتعة الدنيوية يتمتع بالتقوى والدين . وكان أمثال هؤلاء يقولون : « نحن متوكلون » ولكن القرآن يخبرنا بأن مثل هذه المظاهر الظاهرية ليست من الدين . فالدين يتعلق بالقلب والعقل دون الظواهر . والشيء الذى يجب على المرء أن يحرص عليه هو ألا يخلو قلبه وعقله من تقوى الله ، وليس أن تكون جعبته خالية من الطعام والشراب .

---

(١) انظر لسان العرب ، لابن منظور . مادة ش ع ث .

(٢) انظر لسان العرب ، لابن منظور . مادة ت ف ل .

(٣) سورة البقرة : ١٩٧ .

الفصل السابع
حج رسول الله

الفصل السابع

حج رسول الله

كان النبيان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام هما اللذان أقاما نظام الحج . وتعرض هذا النظام لفساد كبير عبر العصور إلا أن العرب ظلوا يمارسون شعائره بصورة دورية كل سنة . وكان الحج حيًا قائما مع الزيف والفساد الذى طرأ عليه فى ظل الجاهلية حين ولد محمد رسول الله ﷺ بمكة .

كم عدد حجات الرسول ؟ ينقسم هذا السؤال إلى شقين من الناحية التاريخية . فيتعلق الشق الأول بالحج قبل الهجرة بينما يتعلق الشق الثانى بالحج فى أعقاب الهجرة . ولدينا معلومات كاملة فيما يتعلق بالشق الثانى . أما ما يتعلق بالشق الأول فلا توجد لدينا معلومات قطعية .

وقد حج رسول الله ﷺ مرة واحدة بعد الهجرة ويعرف هذا الحج عموما بحجة الوداع . وتقول بعض الروايات إن رسول الله ﷺ أدى فريضة الحج بمكة قبل الهجرة . ولكن لا تتوفر لدينا معلومات قطعية حول هذا الجانب . فنجد فى سنن الترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ أدى فريضة الحج مرتين قبل الهجرة بينما لا يذكر صحيح مسلم إلا حجة واحدة ويقول بعض المحدثين إن رسول الله كان يحج كل عام وفق عادة أهل مكة . ونجد من رواية طبقات ابن سعد أن رسول الله لم يحج إلا مرة واحدة بعد النبوة . ونحن نجد هذا النقص الشديد فى المعلومات حول حجه ﷺ قبل الهجرة بينما نجد الكم الوافر من الروايات حول حجة الوداع لدرجة أنه يمكن وضع يوميات كاملة من بدء مسيرته للحج إلى نهايتها .

فما هو الفرق بين هاتين الحالتين ؟ الفرق يكمن فى الفارق الزمنى .. فإن

رسول الله ﷺ كان شخصية مغمورة بمكة قبل الهجرة ، فلم تكن له من أهمية خاصة تذكر فى عيون عامة الناس..أما حجة الوداع فوقعت فى أواخر حياته حين كان قد أصبح فاتحا وحاكما على الجزيرة العربية . وهذا هو الفارق بين مرحلتي حياته المكية والمدنية . فنجد أن التاريخ لم يسجل وقائع حجاته الأولى بينما سجل حجته الأخيرة بتفصيل كبير ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وقد حاول بعض المؤلفين جمع الروايات المتناثرة حول حجة الوداع ، وفيما يلى بعض الكتب التى نجد فيها جمعا لهذه الروايات :

حجة الوداع	لابن حزم الأندلسى
السيرة النبوية	لابن كثير
زاد المعاد	لابن قيم الجوزية
شرح المواهب اللدنية	للزرقانى
حجة الوداع وجزء عمرات النبى	للشيخ محمد زكريا الكاندهلوى

ونذكر فيما يلى بيانا مختصرا لوقائع هذه الحجة :

لقد أدى النبى ﷺ حجة الوداع سنة ١٠ هـ . وانتقل إلى الرفيق الأعلى بعد ذلك بشهرين بالمدينة المنورة . ويسمى هذا الحج بحجة الوداع لأن رسول الله ﷺ ودّع المؤمنين فى منى وعرفة وقال لهم : « إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا » .

ولهذه الحجة أهمية خاصة من نواح متعددة ، ولذلك أطلق الناس عليها أسماء متعددة مثل حجة الوداع وحجة الإسلام وحجة البلاغ وحجة الكمال وحجة التمام ..

وكانت مكة قد افتتحت فى رمضان سنة ٨ هـ ، ولم يحج رسول الله ﷺ ذلك العام أو فى العام التالى ، بل توجهت جماعة من ثلاثمائة من المسلمين من

المدينة للحج سنة ٩ هـ بأمر منه . وكان أبوبكر الصديق هو قائد هذه الجماعة . وقد اشترك فى هذا الحج مشركو الجزيرة العربية ولكن أعلن خلال هذا الحج (٩ هـ) أنه لن يسمح لمشرك بالحج بعد هذا العام .. وقد قام بهذا الإعلان علىّ رضى الله عنه .

وقرر رسول الله ، ﷺ ، أن يحج فى العام التالى فأرسل إلى القبائل يخبرها بنيته هذه لكى يشارك فى هذا الحج أكبر عدد ممكن من المسلمين . وكانت عبادة الحج مستمرة بلا انقطاع منذ سنّها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ولكن شابها الكثير من الطقوس الجاهلية .. ولذلك كان ضروريا أن يشاهد الرسولَ أكبرُ عدد من الناس وهو يؤدى أركان الحج وأن يقلّدوه فى الحج بعد ذلك . ومثل هذا الأعمال لا يمكن فهمها وإدراكها جيدا إلا بمشاهدتها ، وقليلا ما يمكن فهمها بالكلام فقط .

ويقول جابر بن عبد الله أنه رأى رسول الله ﷺ وهو على مطيته يرمى الجمرات فخاطب الناس يقول : « أيها الناس خذوا عنى مناسك الحج فقد لا أحج بعد هذا العام » .

وحين انتشر خبر عزم رسول الله ، ﷺ ، على أداء الحج فى أطراف الجزيرة بدأ الناس يتقاطرون على المدينة ، فاجتمع فيها نحو مائة ألف من المسلمين . وخرج رسول الله ، ﷺ ، من المدينة فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٠ هـ .. وأخذ الناس ينضمون إلى موكبه فى الطريق .. ويقول جابر إنه كان يرى البشر أينما جال ببصره .. وارتفع عدد الذين رافقوا موكب الرسول إلى ١٢٥ ألفا حين وصل إلى مكة وكان رسول الله ، ﷺ ، يمتطى ناقته المعروفة بالقصواء . وكانت ناقة معروفة بسرعتها ولكن كان عليها زاد لا يساوى أربعة دراهم . وبكلمة أخرى : كان الرسول يلجأ إلى أعلى المعايير عند الحاجة بينما كان يفضل البساطة عندما تنتهى حدود الحاجة .

وكان رسول الله قد صلّى صلاة الظهر مع الناس قبل مغادرة المدينة ، فخطب فى الناس يشرح لهم فرائض الإحرام وآدابه ثم انطلق من المدينة وبات بذى الحليفة التى هى ميقات أهل المدينة وتبعد عنها خمسة أميال . وفى اليوم الثانى اغتسل وصلى صلاة الظهر من ركعتين وأحرم بنية الحج والعمرة (القرآن) ثم انطلق يلبى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

وهكذا كان النبى يسير مع أصحابه من المدينة إلى مكة . وكلما وجد مرتفعا فى الطريق علاه الرسول مكبرا ربَّه وكأنه يعلن عظمة الرب من تلك الربوة ليسمعه العالم أجمع .

ووصل الرسول ﷺ مكة فى الرابع من ذى الحجة .. وقطع هذا السفر من المدينة إلى مكة فى تسعة أيام . وكان الوقت عصرا ، وظل الرسول يسير حتى دخل الحرم ، وعندما وقع بصره على بيت الله قال : « اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة » ، ثم أخذ يرفع يده مكبرا يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حيّنا ربنا بالسلام » .

ولم يصلّ الرسول ركعتى تحية المسجد عندما دخل الحرم بل بدأ بطواف القدوم فدنا من الحجر الأسود واستلمه قائلا : « باسم الله ، الله أكبر » .. ثم طاف حول الكعبة سبع مرات بادئا من يمينه جاعلا الكعبة على يساره . وترمل — أى طاف بخطى سريعة — فى الأشواط الثلاثة الأولى ثم تابع الطواف بالخطى العادية فى الأشواط الباقية . وكان رداء الإحرام على كتفه الأيسر بينما كان كتفه الأيمن عاريا . ويطلق على هذا الأسلوب وصف « الاضطباع » . وكلما مرّ الرسول أمام الحجر الأسود خلال الطواف أشار إليه واستلمه بعصاه .

والدعاء الآتى مأثور بين الحجر الأسود والركن اليمانى : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .. وهناك أدعية أخرى مأثورة عن

النبى للطواف .

وبعد الانتهاء من الطواف تقدم الرسول إلى مقام إبراهيم وتلا الآية القرآنية الآتية : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[1] . وأدى الرسول صلاة ركعتين عند مقام إبراهيم ثم تقدم إلى الحجر الأسود وقبلّه ثم توجه إلى الصفا وحين وصلها قال : « إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام ، أبدأ بما بدأ الله به » .

ثم علا جبل الصفا حتى تراءت له الكعبة فتوجه إليها وقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » .

ثم نزل من الصفا متوجها إلى المروة وسعى بين الجبلين وأخذ يجرى حين وصل إلى المنخفض بينهما – الذى تدل عليه علامة الميلين الأخضرين الآن – وحين انتهى المنخفض أخذ يمشى بالسرعة العادية .. وحين وصل المروة اعتلاها حتى تراءت له الكعبة وهنا أيضا كبرّ وهلّل ودعا ربّه .. وهكذا سعى بين الصفا والمروة سبع مرات . وتقول بعض الروايات إنه سعى فى الأشواط الأولى على قدميه ثم، أكملها على راحلته . ولعله فعلها لكى تشاهد عملَه الجماهيرُ الغفيرة بصورة جيدة . وأنهى الرسول شوطه السابع عند المروة .

وكان الرسول الكريم قد نزل بمكان يقال له الأبطح حين وصل مكة فى الرابع من ذى الحجة ومكث بهذا المكان حتى الثامن من ذى الحجة وأخذ يصلى قصرا مع صحابته بهذا المكان ثم توجه مع أصحابه إلى منى فى الثامن من ذى الحجة ، ولم يقم بطواف الكعبة عند الذهاب إلى منى . وصلى صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنى فى ذلك اليوم وبات بها تلك الليلة . وانطلق إلى عرفات فى التاسع من ذى الحجة قبل طلوع الشمس ونزل بخيمة بنمرة بوادى عرفة . وكان

---

(١) سورة البقرة : ١٢٥

من الصحابة من يلبى ومن يكبر ، ولم يكن هناك أحد يعترض على الآخر .

لما حان الزوال ركب الرسول الكريم ناقته وتوقف فى بطن عرفة . وهنا فى موقع مسجد نمرة الحالى خطب خطبته المعروفة بخطبة حجة الوداع . وقد وردت أجزاء متفرقة من هذه الخطبة ، وكذلك الخطبة الأخرى التى ألقاها الرسول الكريم فى منى ، فى كتب الأحاديث وسننقل مجموعها فى الصفحات القادمة .

وكان هذا يوم الجمعة (٩ ذو الحجة) .. وحين انتهى الرسول ، ﷺ ، من خطبته ، أمر (بلالا) بالأذان ، فأذّن ، فصلى رسول الله ﷺ صلاتى الظهر والعصر جمعا ، ركعتين ركعتين ، بأذان واحد وإقامتين . ولم تكن هذه صلاة جمعة بل صلاة الظهر لأنه ﷺ لم يجهر بالقرآن ، كما أنه ﷺ لم يصلّ سنّة أو نافلة بعد أداء الفرض .

وبعد أداء الصلاة جاء رسول الله ﷺ إلى ذلك الموضع من عرفات الذى يسمى الآن بالموقف ، وظل يدعو ربه وهو على ناقته إلى أن أدركه الغروب . وقال رسول الله : إن الدعاء فى هذا اليوم أفضل الأدعية ... ويمكننا أن نستشعر شيئا من الأحاسيس الربانية التى كانت تملؤه آنذاك من بعض الكلمات التى قالها حينذاك وهو يدعو ربه :

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، لا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجِل المشفق المقر المعترف بذنوبى ، أسألك مسئلة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم أنفه لك اللّهم ! لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن لى رؤوفا رحيما ، يا خير المسئولين ويا خير المعطين » ..

كان الناس يأتون إليه يستفسرونه عن مسائل الحج . وأتاه ناس من أهل نجد ، فقالوا : يا رسول الله ! كيف الحج ؟ قال : « الحج عرفة . فمن جاء قبل

صلاة الفجر ليلة جمع فقد تم حجه »[1] .

ونزلت الآية القرآنية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[2]. هنا بعرفة بعد خطبة حجة الوداع . وتوجه رسول الله ﷺ إلى المزدلفة بعد غروب الشمس . وأجلس أسامة بن زيد خلفه على راحلته ، وظل يكبر طول الطريق إلى أن وصل المزدلفة . ومنع رسول الله الناس من الإسراع فقال لهم : « أيها الناس ، عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بإيجاف الخيل والإبل »[3] .

وفى المزدلفة أمر رسول الله بلالا بالأذان ، وقام بعد الأذان فصلى المغرب قبل أن تبرك الجمال وتنقل منها الأمتعة . وصلى ركعتى العشاء حين نقل الناس أمتعتهم . وقد صلى المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يصل شيئا غير الفرض ، ثم استراح ونام ليلته حتى الفجر . وصلى الفجر مبكرا فى الصباح . وكان هذا هو اليوم العاشر من ذى الحجة . وبعد الفجر ركب رسول الله ﷺ راحلته وذهب إلى المشعر الحرام حيث ظل يدعو ربه متوجها إلى القبلة ، إلى أن تبدد الظلام . وغادر المزدلفة قبل طلوع الشمس ، وظل يكبِّر دون انقطاع وكان الفضل بن عباس جالسا خلفه على راحلته فأمره أن ينتقى له سبع جمرات لرمى الجمار . وحين وصل رسول الله إلى وادى محسر أمر الناس بأن يجاوزوه بسرعة ، وكذلك دفع بناقته للإسراع .. ووادى محسر هو الموقع الذى نزل فيه العذاب الإلهى على أصحاب الفيل . واستمر رسول الله ﷺ فى مسيرته إلى أن وصل منى . ثم جاء إلى جمرة العقبة ووقف هنا بحيث كانت مكة على شماله ومنى على يمينه ورمى

---

(١) أخرجه ابن ماجة ، كتاب المناسك .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) أخرجه أبو داود .

رسول الله وهو على راحلته سبع جمار ، جمرة بعد جمرة ، وهو يكبر عند رمى كل جمرة . وهذا هو العمل الذى يقال له « رمى الجمرات » . وأوقف رسول الله التلبية بعد رمى الجمرات ، وعاد إلى منى . وبيّن رسول الله خلاصةالدين بالكلمات الآتية : « اعبدوا ربكم ، وصلّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا إذا أُمرتم : تدخلوا جنة ربكم » .

وألقى رسول الله ، ﷺ ، خطبة بمنى وكانت هذه الخطبة مشابهة لخطبته بعرفة .. ولعل هذا التكرار يعود إلى رغبته فى أن يسمعه من لم يسمعه من قبل وليعى عدد كبير من الناس مضامين الخطبة بصورة جيدة . ومما أعلنه رسول الله هنا : « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »[1] .

وكذلك قال رسول الله : « ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلدكم هذا أبدا ولكن رضى عما دون ذلك مما سيكون له طاعة فى بعض ما تحتقرون من أعمالكم »[2] . ثم توجه رسول الله إلى مقام النحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده يوم النحر . ومن باب الصدف أن رسول الله كان قد بلغ ثلاثا وستين سنة من عمره أيضا حينذاك . ثم توقف وأمر عليا بأن ينحر مزيدا من الجمال فأكمل علىّ المائة . وبعد الفراغ من النحر طلب رسول الله معمر بن عبد الله ، وكان حلاقا ، فحلق شعره وقلّم أظفاره . وأمر رسول الله النساء بتقصير الشعر ومنعهن من الحلق . ثم امتطى راحلته متوجها إلى مكة وقال للناس إنه يمكنهم نحر الأضاحى فى أمكنة أخرى من الحرم إلى جانب مقام النحر بمنى . وأمر بطبخ قليل من لحم الأضاحى فأكل منه وووزع الباقى بين الناس . وأمر الناس أن

---

(١) سنن أحمد عن أبى نضرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب الخطبة .

يأكلوا ويطعموا الآخرين من لحم الأضاحى ويتزودوا (أى أن يجففوه ليحتفظوا منه بما شاءوا) .

ووصل رسول الله مكة فى العاشر من ذى الحجة وأدى طواف الإفاضة قبل الظهر ، وهو الطواف الذى يطلق عليه اسم « طواف الزيارة » أيضا . ولم يكن رسول الله يقوم بالرمل أو الاضطباع أو السعى خلال هذا الطواف ، ثم جاء إلى بئر زمزم وشرب من مائه وهو واقف .. وكان أناس من بنى عبد المطلب يسقون الناس على ما جرت عليه العادة . ورجع رسول الله إلى منى فى اليوم نفسه وبات بها .

وفى اليوم التالى — ١١ ذى الحجة — انتظر الرسول زوال الشمس وعندما حان وقت الزوال نزل عن راحلته وتوجه لرمى الجمرات فرمى بالجمرة الأولى سبع جمرات ، واحدة بعد الأخرى .. وأخذ يدعو لبعض الوقت ، ثم رمى الجمرات بالطريقة نفسها على الجمرة الوسطى ووقف يدعو ربه لبعض الوقت ، وكان يكبر عند رمى كل جمرة ، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فرماها بسبع جمرات . ثم تنحى عن المكان .

وأقام رسول الله بمنى يومى ١٢و ١٣ ذى الحجة أى طوال أيام التشريق الثلاثة. واستمر يصلى الصلوات قصرًا دون جمع. وخرج رسول الله متوجها إلى مكة بعد زوال الشمس فى الثالث عشر من ذى الحجة. وأقام فى الطريق بوادى المحصّب (بالأبطح)، وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء هنا وبات به ليلته، وقام قبل الفجر وذهب إلى الحرم، وطاف طواف الوداع، وأدى صلاة الفجر بالكعبة. ومن ثم أمر الحجيج بالمسير فتوجه الكل إلى مناطقهم، أما رسول الله فسار بالمهاجرين والأنصار إلى المدينة..وكان قد أقام بمكة — منذ قدومه إلى أن خرج منها — عشرة أيام.

وعندما وصل رسول الله إلى ذى الحليفة بالقرب من المدينة توقف وبات به ، وتوجه فى الصباح قبل طلوع الشمس إلى المدينة . وحين وقع بصره على سواد المدينة كبّر ثلاثا : « الله أكبر لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . آئبون تائبون ، عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » .

ويقول أسامة بن شريك : خرجت مع رسول الله حاجا فكان الناس يأتونه فمن قال : يا رسول الله سعيتُ قبل أن أطوف أو قدّمتُ شيئا أو أخرّت شيئا فكان يقول « لا حرج إلا على رجل افترض عرض رجل مسلم وهو ظالم فذلك الذى حرج وهلك »[١] .

دروس

هناك دروس هامة فى الأسلوب الذى أدى به رسول الله حجةَ الوداع .. ومن أهم هذه الدروس أن الحياة الاجتماعية تسير دائما على هدى التقاليد ، فتحطيم التقاليد الصالحة يؤدى إلى خلل لا سبيل إلى تلافيه فى الحياة الاجتماعية ، ولذلك يجب أن نقوم بكل ما نقوم به فى الحياة الاجتماعية بدون تحطيم التقاليد القائمة الصالحة .. وتحطيم التقاليد ليس هو الأسلوب الإسلامى . وقد روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله مكث بالمدينة تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله حاجّ فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ويعمل بمثل عمله فخرج رسول الله وخرجنا معه[٢] .

ويثور السؤال فى ضوء هذه الأسوة النبوية : لِمَ لَمْ يحج رسول الله لمدة تسع سنين ؟ ومن الظاهر أنه كانت هناك مخاوف من أن قريشا ستقاوم مجيئه للحج فى

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب فيمن قدم شيئا قبل شىء فى حجه .
(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الحج ، باب صفة حج النبى .

السنوات الأولى بعد الهجرة مثلما منعته من أداء العمرة عند واقعة الحديبية . ولكن هذا العائق زال عندما فتحت مكة فى رمضان سنة ٨ هـ وكذلك لم يحج رسول الله فى السنة التالية (٩ هـ) .. فلم يحج إلا فى السنة العاشرة من الهجرة ، وتوفى إلى رحمة الله بعد ذلك بشهرين ويعود السبب فى هذا إلى أن رسول الله كان يرغب فى أن يتم الإصلاح المطلوب فى نظام الحج بدون تحطيم التقاليد .

والتقويم السنوى من نوعين : قمرى وشمسى .. ويتحدد التقويم القمرى بدوام القمر ويمكن لكل شخص أن يشاهده فهو يكبر ويصغر ويختفى ليظهر من جديد .

أما التقويم الشمسى فيحدده الرياضيون بعد إجراء عمليات حسابية دقيقة لدوران الشمس .. وبكلمة أخرى : التقويم القمرى تقويم طبيعى بينما التقويم الشمسى تقويم حسابى .

وقد ارتضى الله تعالى التقويم القمرى لنظام العبادات . وليس هذا لأن التقويم القمرى « أفضل » من غيره أو لأنه يتمتع بقدسية ، فالله الذى حدّد دورانَ القمر هو الذى حدّد دورانَ الشمس . فكيف يمكن أن يكون أحد التقويمين مقدسا والآخر غير مقدس ؟ . أما سبب تفضيل أحد التقويمين على الآخر فيرجع إلى أهمية العملية ولا علاقة له بالعقيدة . وتراعى كل العبادات البساطة الطبيعية ولذلك أُسست العبادات على التقويم القمرى . وهذه هى الحقيقة التى رويت فى أحدى الروايات كما يلى :

عن ابن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله : « إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا وهكذا ، يعنى تمام الثلاثين ، يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[1]

---

(١) متفق عليه .

والشهر القمرى قائم على رؤية الهلال ، وهو لذلك يتكون من تسعة وعشرين يوما أحيانا وثلاثين يوما أحيانا أخرى .. وقد أوضح رسول الله هذا الأمر بصورة بسيطة بأن بسط أصابع يديه ثلاث مرات يعنى ١٠ + ١٠ + ١٠ = ٣٠ ، ثم فعل الشىء نفسه ولكنه عقد إبهامه فى المرة الأخيرة يعنى ١٠ + ١٠ +٩ = ٢٩ .

وهذا لا يعنى أن التقويم القمرى تقويم « دينى » وأن من الواجبات الدينية أن تتم كل المعاملات والحسابات وفق التقويم القمرى فحسب ، بل إن التقويم القمرى يتعلق بالعبادات ولابد من مراعاته فى العبادات لكى يؤديها كل شخص بيسر وتناغم بالآخرين .

وكان نظام الحج الذى وضعه إبراهيم عليه السلام قائما على التقويم القمرى مراعاة لهذه المصالح ، ولكن قريش مكة ، الذين كانوا يتولون رعاية شئون الكعبة ، أرادوا أن يحددوا أيام الحج وفق التقويم الشمسى لكى تقع أيامه فى موسم واحد دائما ، الأمر الذى كان مفيدا لتجارتهم .. واستعارت قريش لهذا الغرض مبدأ « النسىء » أو « الكبيسة » من الشعوب الأخرى وأجرتها فيما يتعلق بالحج .

وتتكون السنة الشمسية من ٣٦٥ يوما بينما تتكون السنة القمرية من ٣٥٤ يوما ، أى أن هناك فارق أحد عشر يوما بينهما ، ويصل هذا الفارق إلى ثلاثة أشهر كل ثمانى سنوات . وكانت قريش تضيف إلى الشهور القمرية أياما بقدر هذا الفارق لكى يمشى الشهران القمرى والشمسى معا . وهكذا بدأت الشهور القمرية تقع فى غير أيامها الحقيقية . وكان هذا الدوران يتم فى ٣٣سنة . وهكذا استمرت قريش تقيم الحج لمدة ٣٣ سنة متواصلة فى غير أيامه الأصلية .. وكان الحج سيقع فى تاريخه الإبراهيمى الأصلى — أى فى ذى الحجة — مرة أخرى فى العام الرابع والثلاثين .. وعندما فتحت مكة فى رمضان سنة ٨ هـ كان هذا الدوران ذو الثلاث والثلاثين سنة فى آخر مراحله أى أن موسم الحج خلال سنتى ٨ و ٩ هـ كان يقع فى ذى القعدة وفق طريقة « النسىء » السائدة حينذاك ، أما

فى السنة العاشرة الهجرية فكان هذا الدوران سيكتمل ليقع الحج مرة أخرى فى أيامه الأصلية أى فى ذى الحجة المتطابق مع التقويم القمرى الحقيقى .

وكان رسول الله ﷺ مجددا للدين الإبراهيمى وكان الله تعالى قد كلّفه بأن يعيد إنشاء نظام الحج على أسسه الإبراهيمية . وكان يمكن للرسول ﷺ أن يعلن هذا سنة ٨ هـ بصفته فاتح مكة ولكنه لم يفعل هذا . وهكذا كان يمكن لرسول الله أن يصدر التعليمات فى السنة التالية لأداء الحج فى أيامه الإبراهيمية ، ولكنه لم يقم بهذا العمل الهام إلا فى السنة العاشرة الهجرية بحين وصلت أيام الحج تلقائيا إلى الأيام الإبراهيمية .

والسبب فى هذا هو أن رسول الله ﷺ لو فعل هذا فى السنتين الثامنة والتاسعة لحطّم تقاليد قائمة منذ قرون بينما مطلبه كان سيتحقق فى السنة العاشرة بدون تحطيم هذه التقاليد . وللتقاليد أهمية قصوى فى الحياة الاجتماعية ولذلك يحاول الرسول دائما أن يحصل على هدفه بدون تحطيم التقاليد [1] . فأدى رسول الله ﷺ الحجَّ فى السنة العاشرة فى أيامه الإبراهيمية وأعلن أن هذا سيحدث للأبد من الآن فصاعدا . وهذه هى الحكمة التى بيّنها رسول الله بالكلمات الآتية فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا[2] .. ويعنى هذا أن التاسع من ذى الحجة يقع فى اليوم مرة أخرى فى موقعه الأصلى بعد دوران ثلاث وثلاثين سنة ، وهذا يطابق نظام الطبيعة ، واليوم يلغى التقويم الصناعى . ومن الآن فصاعدا سيؤدى الحج كل سنة فى ذى الحجة وفق هذا التقويم الطبيعى .

---

(١) وهذا يعنى رفض الرسول عليه السلام — والإسلام — للأسلوب الثورى ! !

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ط . الحلبى ، ٢/٦٠٤ .

خطبة حجة الوداع

خطبة الوداع هى آخر خطبة ألقاها رسول الله ﷺ . وهذه هى الخطبة التى ألقاها بجبل عرفات فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٠ هـ . ويمكن اعتبار حجة الوداع أكبر تجمع إسلامى فى العهد النبوى ، فقد تجمع بعرفات فى ذلك الوقت نحو ١٢٥ ألفا من أصحاب رسول الله ﷺ . وقد ألقى رسول الله هذه الخطبة قبل وفاته بنحو شهرين ، وأعلن فيها بصورة أخيرة ونهائية كل تلك الأشياء التى بُعِث من أجلها .

وتذكر كتب الأحاديث حجة الوداع بصورة مفصلة ، ولكن لا يوجد المتن الكامل لخطبة حجة الوداع فى أى من هذه الروايات . بل نجد أجزاء متفرقة فى عدد من الروايات ، وقد حاول بعض أهل العلم أن يجمعوا هذه الأجزاء المتفرقة فى مجموعة واحدة .

ويمكن أن نلخص هذه الخطبة بكلمة واحدة : إنها إعلان عظمة الله ومساواة البشر .. فقد أخبرنا رسول الله أن هناك فارقا واحدا بين البشر وهو الفارق بين المؤمنين بالله والخارجين عليه . أما الفوارق الأخرى فهى كلها اصطناعية ، وقد ألغى الله تعالى كل هذه الفروق ونصب أمته مسئولة للأبد لكى تعلن هذا على العالم دوما . وكان المظهر العملى لهذا الإعلان أن عبدين محررين كانا أقرب الناس إليه عندما ألقى هذه الخطبة فى نحو ١٢٥ ألفا من البشر معلنا عظمة الله ومساواة البشر ، وكان أحدهما بلالا الحبشى الذى كان يمسك بخطام ناقته ، وكان الآخر هو أسامة بن زيد الذى كان يمسك بقطعة من القماش ليقى رسول الله من حر الشمس .

وفيما يلى نص هذه الخطبة التى خطبها رسول الله ﷺ يوم عرفة :

أيها الناس :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى

بلدكم هذا . ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضعه من دمائنا : دم ابن ربيعة بن الحارث [كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل] . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا : ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، واتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتابَ الله وسنة نبيه . وأنتم تُسألون عنى ، فماذا أنتم قائلون ؟ [قالوا : نشهد أنك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس : « اللهم اشهد » [ثلاث مرات] .

أما الخطبة التى ألقاها رسول الله ﷺ ، فى أوسط أيام التشريق فنصها كما يلى :

« يا أيها الناس ! أتدرون فى أى شهر أنتم وفى أى يوم أنتم وفى أى بلد أنتم ؟» [فقالوا : فى يوم حرام ، وبلد حرام ، وشهر حرام] ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، وفى بلدكم هذا ، إلى يوم تلقونه . اسمعوا منّى تعيشوا : ألا لا تظلموا ! ألا لا تظلموا ! ألا لا تظلموا ! إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ، ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه ، إلى يوم القيامة وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وإن الله عز وجل قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب ، لكم رؤوس أموالكم ، لا تَظلِمون ولا تُظلمون . ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض [ثم قرأ] ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك

الدين القيّم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ . ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ، ولكنه رضى بالتحريش بينكم ، واتّقوا الله فى النساء ، فإنهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإن لهن عليكم حقا ، ولكم عليهن حقا : ألّا يوطئن فرشكم أحدا غيركم ، ولا يأذنّ فى بيوتكم لأحد تكرهونه . فإن خفتم نشوزهن ، فعظوهنّ ، واهجروهن فى المضاجع واضربوهنّ ضربا غير مبرح ، ولهنّ رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عزّ وجل ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . [وبسط يديه وقال :] ألا هل بلّغت ؟ألا هل بلّغت ، [ثم قال :] ليبلّغ الشاهد الغائب ، فربّ مبلَّغ أوعى من سامع »[1] .

وخلاصة هذه الخطبة كلها تكمن فى كلمة « ألا لا تظلموا ، ألا لا تظلموا » .. فهذه الخطبة تهدف إلى سد كل أبواب الظلم سواء أكانت ناتجة عن أوهام كاذبة أو قوانين خاطئة أو أنانية فرد من الأفراد أو استبداده .. ولهذا أعلن رسول الله أن دماء المسلم وأمواله وعرضه حرام على أخيه المسلم إلا أن يكون بسند من الشريعة الإلهية ، فحظر كل الأعمال التى كانت تتم وفق التقاليد الجاهلية والعواطف الانتقامية حظرًا مطلقا . وكذلك ألغى رسول الله التعامل الربوى الذى يؤدى إلى الظلم الاقتصادى وإذكاء أوار الحقد بين مختلف فئات المجتمع ويعوق العدالة الاجتماعية بطرق غير مباشرة . وأوضح رسول الله حقوق النساء بكل وضوح ومنع الرجال من أن يظلموهن استغلالا لضعفهن .

وأعلن رسول الله أن كتاب الله وسنة رسوله هما المعياران الوحيدان لتنظيم المعاملات بين البشر .. وألزم رسول الله كل الناس بأن يحلوا كل نزاعاتهم فى ضوء

---

(١) مسند أحمد .

أحكام القرآن والسنة النبوية ، سواء أكان حكم القرآن والسنة يوافق هواهم أم لا يوافق .

ومنع رسول الله المسلمين وشدد عليهم ألا يتقاتلوا فيما بينهم .. وهذا القتال الداخلى هو السبب الأكبر للخلافات داخل الأمة الإسلامية . وقد حفظ الله دينه وأحكمه لدرجة أنه لا سبيل أمام الشيطان إلى إفساد الدين نفسه إلا أنه سيدفع المسلمين للقتال فيما بينهم على نزاعات تافهة بمختلف العناوين والشعارات .. ولن يصيب المسلمين شيء من الأذى لو نجوا من هذه الفتنة .

ويقتضى الإيمان بالإسلام أن يشعر المسلمون بأهمية أداء الأمانات إلى أهلها . ومن أهم هذه الأمانات إبلاغ الرسالة الإلهية إلى الآخرين ، ومنها كذلك إعادة أموال الناس إليهم ، والاعتراف بكفاية الكفء . فإخلاء المكان والمنصب للكفء هو الآخر من أداء الأمانات . والمسلمون ملزمون بأن يكونوا أمناء ومسئولين فى كل المعاملات وفى أداء الأمانات .

وخطبة رسول الله هذه هى إعلان حقّ ، والحاج الحقيقى هو الذى يسمع إلى هذا النداء ويعود من الحج وقد أصبحت هذه الخطبة منهاج حياته كلها .

الفصل الثامن

مسائل الحج

الفصل الثامن

مسائل الحج

الحج هو ركن الإسلام الخامس ، وهو فرض على كل مسلم ومسلمة مرة واحدة فى حياتهما فى حالة الاستطاعة . وهو يؤدى فى خمسة أيام ، من ٨ ذى الحجة إلى ١٢ منه ، كل عام .

ويجب على كل من ينوى الحج أن يُحرِم ، أى ينوى الحج ثم يرتدى ملابس الحج الخاصة ، فى مكان معين قبل التوجه إلى مكة ، ويسمى هذا المقام بالميقات ، وميقات القادمين من الشرق ، كالهند وباكستان ، هو قرن المنازل ، وميقات القادمين من ناحية المدينة هو ذو الحليفة ، وميقات القادمين من ناحية الكوفة والبصرة وبغداد هو ذات عرق ، والجحفة هى ميقات القادمين من تركيا والشام . ولابد من الإحرام عند الميقات قبل التوجه إلى مكة .

ويسمى يوم الثامن من ذى الحجة بيوم التروية . ويسنّ للحاج أن يغتسل ليلة الثامن من ذى الحجة أو فى صباحه ويتعطر ويتجه إلى الكعبة وهو فى ملابس الإحرام ، فيطوف حولها ، ثم يصلى عند مقام إبراهيم صلاة نافلة من ركعتين تسمى بسنة الطواف ، ثم يدعو ويستغفر ربه . ثم يصلى ركعتين بنية الإحرام ، وينوى كما يلى : « اللهم إنى أريد الحج فيسّره لى وتقبله منى » ، وذلك بقلبه أو بقلبه ولسانه فى بعض الآراء .

والحاج يردد الدعاء الآتى ابتداء من الإحرام وحتى نهاية الحج : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » ويؤدى الرجال هذا الدعاء الذى يسمى بالتلبية بصوت مسموع .

أما النساء فيرددنه بصوت خافت .

ويجب السعى بين الصفا والمروة مرة واحدة للمقرن أو المفرد خلال الحج ، ويمكن أداؤه قبل الذهاب إلى عرفات أو بعد طواف النفل أو طواف الزيارة ، أما المتمتع فعليه سعيان سعى للعمرة وسعى للحج لايفعل إلا بعد طواف الإفاضة ومن الأفضل أداء طواف الزيارة بعد العودة إلى منى ، إلا أنه يجوز للضعفاء أن يؤدوه مسبقا خوفا من هجوم الناس ، وذلك بعد منتصف الليل .

ويتكون الطواف من سبع دورات حول الكعبة وينبغى بدؤه بعد استلام الحجر الأسود أو الإشارة إليه فى حالة الزحام ، ثم تقوم بالاضطباع والرمل[1] فى الدورات الثلاث الأولى . والاضطباع هو أن تُخرِج طرفا من رداء الإحرام العلوى من تحت الكتف الأيمن وتضعه على الكتف . والرمل هو مشية الرجل القوىّ السريعة . ولا اضطباع ولا رمل على النساء . ثم تؤدى دورات الطواف الأربعة الباقية بالمشية المعتادة ، وتظل تدعو ربك خلال دوران الطواف ، ثم تصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم تأتى الملتزم وتدعو الله ثم تتوجه إلى بئر زمزم وتشرب من مائه وتدعو الله ، ثم تتوجه إلى باب الصفا للسعى من جبل الصفا إلى المروة . وتكتمل دورة السعى الواحدة بالسعى من الصفا إلى المروة ، وتكتمل الدورة الثانية بالسعى من المروة إلى الصفا عائدا ، وهكذا تكمل سبع دورات . وتظل مكبرا ومهللا وداعيا خلال هذه الدورات . وينبغى على الرجال أن يسعوا بما يشبه السعى فى المسافة بين الميلين الأخضرين الذين تعيّنهما علامات بارزة . وينبغى أن تنتهى دورة السعى السابعة عند المروة .

ويتوجه الحاج إلى منى فى صباح الثامن من ذى الحجة . وينبغى على الحاج أن يصل منى قبل الظهر لكى يؤدى هناك صلاة الظهر . ومجموع الأيام التى

---

(١) ذلك يكون فى طواف القُدوم أو العمرة فقط .

سيقضيها الحاج بمنى خمسة أيام ، وينبغى فى حالة الإمكان أن تؤدى الصلوات الخمس بمسجد الخيف ابتداء من ظهر الثامن من ذى الحجة إلى فجر التاسع من ذى الحجة ، ثم تذهب إلى عرفات فى التاسع من ذى الحجة وتقيم هناك .

ووقوف عرفة هو ركن الحج الأعظم ، وهنا نجمع صلاتى الظهر والعصر ، ونعود من عرفات فى نفس اليوم لنقضى الليلة بالمزدلفة ، ثم نتوجه إلى منى مرة أخرى صباح العاشر من ذى الحجة قبل طلوع الشمس ، ونستمر فى هذه الأثناء فى ترديد التلبية والتوجه بالدعاء إلى الله تعالى . ومن هذه الأدعية « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير » . ومن السنّة أن نبقى بجبل عرفات حتى غروب الشمس ، ثم نتوجه إلى المزدلفة بعد المغرب فى العاشر من ذى الحجة ونصلى هناك صلاتَىْ المغرب والعشاء جمعا . ويمكننا أن نتوقف خلال هذه الرحلة فى أى مكان فى الطريق ما عدا وادى محسّر . ونعود فى العاشر من ذى الحجة نفسه إلى منى مرة أخرى . وتوجد ثلاثة مقامات بين منى ومكة وتسمى الجمرة الأولى ، والجمرة الوسطى ، والجمرة الكبرى (العقبة) وترمى هذه « الجمرات » ثلاث مرات بسبع جمرات فى أوقات مختلفة .

وننحر الأضاحى بعد رمى الجمار ، ثم نحلق رؤوسنا أو نكتفى بتقصير الشعر ونغتسل ونلبس الملابس العادية ونذهب لنحر الأضاحى . ويمكن توكيل فردين أو ثلاثة أفراد ليقوموا بالنحر نيابة عن قافلة أو مجموعة من الحجاج . فليس من الضرورى على كل حاج أن ينحر أضحيته بيده . ويتحرر الحاج من محرمات الحج بعد الحلق أو التقصير ما عدا الرفث .

والآن يقوم الحاج بطواف الزيارة . ويستحسن القيام بطواف الزيارة قبل غروب الشمس فى العاشر من ذى الحجة . ويمكن أداء هذا الطواف حتى قبيل غروب الشمس فى الثانى عشر من ذى الحجة . وينبغى على المرء أن يكثر من الذكر

والدعاء عند طواف الزيارة . ونعود إلى منى مرة أخرى بعد طواف الزيارة ونقوم برمى الجمرات فى اليومين الحادى والثانى عشر من ذى الحجة بعد الزوال . والطريقة المسنونة لرمى الجمرات بعد العودة إلى منى هى رمى الجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى . ومن السنّة أن نقيم ثلاث ليالٍ فى منى بعد العودة من المزدلفة . ويمكن الانصراف من منى بعد قضاء ليلتين بها قبل غروب الشمس فى الثانى عشر من ذى الحجة .

لقد اكتمل حجك هنا وينبغى أن تطوف بالكعبة كل يوم داعيا خاشعا ما بقيتَ مقيما بمكة بعد هذا ، وأن تقوم بطواف الوداع عند الخروج النهائى من مكة .

زيارة المدينة المنورة

ليس من أركان الحج وفرائضه أن تتوجه إلى المدينة أو أن تصلى بالمسجد النبوى وتزور روضة الرسول ﷺ ، إلا أن له ثوابا كبيرا ، وينبغى على الحاج ـ من باب السنة ـ ألا تفوته زيارة المدينة المنورة ، وعليه أن يتوجه إلى المدينة من مكة بعد طواف الوداع .

وينبغى على المرء أن يكثر من الصلاة والسلام على النبى ﷺ وهو فى رحلته نحو المدينة ، وأن يغتسل بعد الوصول إليها ، ثم يتوجه إلى المسجد النبوى ليصلى ركعتين ثم يدعو ربه ، وبعد الفراغ من الصلاة والدعاء ، عليه أن يأتى بكل أدب إلى نوافذ المواجهة الشريفة ويصلى ويسلم على الرسول ﷺ .

وعليك أن تحاول ـ أيها الزائر ـ أداء أكبر قدر من الصلوات فى المسجد النبوى خلال إقامتك بالمدينة . وينبغى بعد الفراغ من الصلاة فى المسجد النبوى والتسليم على الرسول ﷺ أن تزور مقامات المدينة التى ترتبط بتاريخ الإسلام مثل جنة البقيع ، التى هى مقبرة عدد كبير من الصحابة الكرام ومسجد قبا الذى صلى فيه رسول الله ﷺ أول ما صلى فى المدينة ، وجبل أحد الذى وقعت عنده ثانى حرب كبرى فى تاريخ الإسلام ، ومسجد القبلتين الذى نزل به حكم تغيير القبلة أثناء الصلاة وغيرها من المقامات والآثار الإسلامية .

محظورات الحج

والأشياء التالية محرمة على الحاج بعد الإحرام :

١ ـ الجدال والخصام .

٢ ـ الكذب .

٣ ـ الغيبة وذكر الآخرين بالسوء .

٤ ـ القذف .

٥ ـ الكلام البذىء والفاحش (ملاحظة : هذه الأشياء محرمة فى كل الأحوال إلا أن شناعتها تزداد كثيرا خلال الحج) .

٦ ـ صيد الحيوانات البرية أو تحريض الآخرين على اصطيادها .

٧ ـ حلق الشعر وتقليم الأظافر .

٨ ـ ارتداء الجوارب والخفاف أو أحذية تغطى القدم إلى الكعبين .

٩ ـ ارتداء العمامة أو القلنسوة .

١٠ ـ ارتداء الملابس المخيطة .

١١ ـ اجتثاث الأعشاب والنباتات وكسر أغصان الأشجار .

١٢ ـ استخدام العطر أو وضع الزيت على الرأس .

١٣ ـ المباشرة الزوجية أو الانشغال فى أحاديث الهوى .

ترتيب مناسك الحج

١ ـ الخروج من البيت بنية الحج .

٢ ـ الإحرام عند حدود الميقات .

٣ ـ دخول مكة بعد الاستحمام أو الوضوء .

٤ ـ دخول الحرم وطواف الكعبة بالطريقة المقررة .

٥ ـ السعى بعد الطواف بين الصفا والمروة .

٦ ـ التوجه إلى منى بعد طواف القدوم فى الثامن من ذى الحجة .

٧ ـ التوجه إلى عرفات فى التاسع من ذى الحجة وجمع صلاتى الظهر والعصر بها .

٨ ـ التوجه إلى المزدلفة ليلة العاشر من ذى الحجة وجمع صلاتى المغرب والعشاء بها ، وقضاء الليل بها .

٩ ـ الذهاب إلى منى فى العاشر من ذى الحجة ورمى الجمرات (جمرة العقبة) .

١٠ ـ نحر الأضاحى وحلق الرأس .

١١ ـ الذهاب إلى مكة لطواف الزيارة فى العاشر من ذى الحجة بعد حلق الرأس والعودة إلى منى ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة إن فاتك السعى فى الثامن من ذى الحجة .

١٢ ـ القيام بمنى فى الحادى عشر والثانى عشر من ذى الحجة ورمى الجمرات على الجمرات الثلاث بالترتيب .

١٣ ـ وقد اكتمل حجك هنا ويمكنك العودة إلى مكة والطواف حول الكعبة والارتواء من ماء زمزم لشكر الله تعالى على هذه النعمة .

مصطلحات الحج

١ ـ الآفاق : الحاج القادم من خارج حدود الميقات .

٢ ـ الإحرام : ارتداء لباس بسيط يتكون من ردائين بنية الحج أو العمرة .

٣ ـ الاستلام : تقبيل الحجر الأسود أو لمسه .

٤ ـ الاضطباع : ارتداء رداء الإحرام الأعلى بإخراجه من الإبط الأيمن ووضعه على الكتف الأيسر .

٥ ـ الإفراد : الإحرام للحج وحده ، ويسمى الذى يؤدى مثل هذا الحج بالمفرِد .

٦ ـ أهل الحرم : سكان مكة والحرم .

٧ ـ أهل الحِلّ : الذين يسكنون خارج حدود الحرم ولكن داخل حدود الميقات .

٨ ـ التحليق : حلق الرأس بعد نحر الأضحية .

٩ ـ التقصير : تقصير الشعر بعد تقديم الأضحية .

١٠ ـ التقليد : وضع قلادة فى عنق الهدى .

١١ ـ التلبية : ترديد الدعاء « لبيك اللهم لبيك » .

١٢ ـ التمتع : أداء العمرة قبيل أيام الحج ثم التحلل من الإحرام ، والإحرام من جديد لأجل الحج . ويسمى من يقوم بالتمتع بالمتمتع .

١٣ ـ التهليل : ترديد « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

١٤ ـ الجمرات : هى الجمرات الثلاثة : الجمرة الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة . وهى تقع بالقرب من مسجد الخيف .

١٥ ـ الحجر الأسود : حجر موضوع فى الجانب الجنوبى الشرقى من بناية الكعبة .

١٦ ــ الحطيم : أرض ملاصقة للكعبة كانت جزءا منها فى قديم الزمان إلا أنها خارجة الآن عن بنايتها المكعبة .

١٧ ــ الرفث : فعل أو كلام فاحش ، وهو محرم فى أيام الحج .

١٨ ــ الرمل : مشى سريع مع هزّ الكتفين .

١٩ ــ الرمى : رمى الحصى على الجمرات الثلاث وهى الجمرة الأولى والجمرة الوسطى وجمرة العقبة .

٢٠ ــ الركن الأسود : الركن الرابع من الكعبة حيث يبدأ الطواف بعد استلام الحجر الأسود .

٢١ ــ السعى : السعى سبع مرات بين جبلى الصفا والمروة .

٢٢ ــ الشوط : هو طواف واحد حول الكعبة أو سعى واحد بين الصفا والمروة .

٢٣ ــ الطواف : الدوران حول الكعبة فى سبعة أشواط . وله أنواع مثل طواف القدوم وطواف الزيارة وطواف الوداع .

٢٤ ــ العمرة : وهو الحج الأصغر فى غير أيام الحج ، ويتكون من الإحرام والطواف والسعى .

٢٥ ــ القِران : الإحرام بنية أداء العمرة والحج معا . ويقال لمن يقوم بالقِران « القارِن » .

٢٦ ــ الكفارة : نحر حيوان أو التصدق أو الصوم لتلافى خطأ ما فى أداء مناسك الحج .

٢٧ ــ المزدلفة : واد بين عرفات ومنى يبعد مسافة ميلين عن منى فى جهة الشرق .

٢٨ ــ المطاف : المنطقة المحيطة بالكعبة ، التى يؤدى عليها الطواف .

٢٩ ـ مقام إبراهيم : حجر وقف عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة .

٣٠ ـ الملتزم : هو المكان بين الحجر الأسود وباب الكعبة الذى يدعو فيه الحاج أدعيته الخصوصية .

٣١ ـ منى : مكان يبعد عن مكة بثلاثة أميال .

٣٢ ـ الميلان الأخضران : عمودان أخضران بين الصفا والمروة يسعى بينهما الحاج أو المعتمر سعيا سريعا .

٣٣ ـ الميقات : أمكنة محددة للإحرام قبل الدخول إلى مكة بنيّة الحج أو العمرة .

٣٤ ـ النحر : وهو ذبح الأضحية بمنى بعد الرمى .

٣٥ ـ الهَدْى : وهو الحيوان الذى يصحبه الحاج معه بنية ذبحه فى الحج .

٣٦ ـ الوقوف : هو الوقوف بجبل عرفات والتوقف فى المزدلفة .

آثار إسلامية ذات معان تاريخية

١ ــ أحد : جبل بالقرب من المدينة حيث وقعت غزوة أحد .

٢ ــ بدر : مكان بالقرب من المدينة حيث وقعت أول حرب مع أعداء الإسلام .

٣ ــ بئر عثمان : بئر قديم بالقرب من المدينة ينسب إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

٤ ــ جبل المكبر : جبل بمنى .

٥ ــ جبل الثور : جبل به غار أقام فيه رسول الله ﷺ ثلاث ليال عند الهجرة .

٦ ــ جبل الرحمة : جبل بوادى عرفات ألقى فيه رسول الله ﷺ خطبة حجة الوداع .

٧ ــ جبل قزح : جبل بالمزدلفة .

٨ ــ جبل النور : جبل بالقرب من مكة فى أعلاه غار حراء .

٩ ــ الجحفة : ميقات القادمين من مصر والشام وأوربا ويسمى بـ « رابغ » الآن .

١٠ ــ جنة البقيع : أكبر مقابر المدينة .

١١ ــ جنة المعلّى : مقبرة بمكة بها قبر السيدة خديجة وغيرها من الصحابة .

١٢ ــ حراء : غار بالقرب من مكة نزل به أول وحى على رسول الله ﷺ .

١٣ ــ ذات عرق : ميقات الحجاج القادمين من ناحية العراق .

١٤ ــ ذو الحليفة : ميقات القادمين من المدينة واسمه الحالى « بئر على » .

١٥ ــ الشميسية : المكان الذى أخذ فيه رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من أصحابه .

١٦ ــ الصفا : جبل بالقرب من الكعبة يبدأ منه الحاج أو المعتمر سعيه إلى المروة .

١٧ ــ عرفات : جبل كبير يقيم فيه الحجاج فى التاسع من ذى الحجة .

١٨ ــ قَرن المنازل : اسم جبل ، هو ميقات القادمين من ناحية نجد .

١٩ ــ محسِّر : ميدان بالقرب من المزدلفة نزل فيه العذاب الإلهى على أصحاب الفيل .

٢٠ ــ المدينة : البلدة التى هاجر إليها رسول الله ﷺ وسميت بالمدينة وكانت تعرف قبل هجرته بـ « يثرب » .

٢١ ــ المروة : جبل ينتهى عنده السعى من الصفا .

٢٢ ــ المزدلفة : ميدان بين منى وعرفات .

٢٣ ــ المساجد الخمسة : هى خمسة مساجد فى المدينة يقال إنها تقع فى المكان الذى حفر فيه الخندق عند غزوة الأحزاب .

٢٤ ــ مسجد الخيف : مسجد بميدان منى حيث يقيم الحجاج فى الثامن من ذى الحجة .

٢٥ ــ مسجد قبا : مسجد بالقرب من المدينة ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام .

٢٦ ــ مسجد القبلتين : مسجد بالعقيق الذى نزل فيه حكم تحويل القبلة .

٢٧ ــ مسجد نمرة : مسجد بإحدى نواحى عرفات حيث يصلى الحجاج صلاتى الظهر والعصر جمعًا فى التاسع من ذى الحجة .

٢٨ ــ المشعر الحرام : مقام بالمزدلفة حيث يقف الحجاج .

٢٩ ــ مكة : أشهر مدن الجزيرة العربية حيث بنى إبراهيم عليه السلام بيت الله .

٣٠ ـ منى : اسم مكان ترمى فيه الجمرات .

٣١ ـ يَلَمْلَمْ : ميقات الحجاج القادمين من ناحية اليمن .

٣٢ ـ قرن المنازل (السيل الكبير) : ميقات أهل الهند وباكستان والشرق .

رقم الإيداع ٥٢٠٧ / ٨٧

الترقيم الدولى ٧ - ١٣ - ١٤٣١ - ٩٧٧

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر — المهندسين — جيزة

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل — أرض اللواء

☎ ٣٤٥١٧٥٦ — ص . ب ٦٣ إمبابة

هذا الكتاب

هذا الكتاب وقفة عميقة متأنية عند الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ، وهذه الوقفة العميقة قدمها لنا كاتب هندى مسلم كبير عرفه العالم العربى من خلال بعض أعماله التى قوبلت باستحسان ، وعلى رأسها كتابه المعروف « الإسلام يتحدى » .

فهذه الوقفة لم تأخذ مكانتها من جانب أنها دراسة ملمة بالجوانب الفقهية بطريقة عميقة أو شمولية ، ولم تأخذ مكانتها من جانب أنها تاريخ موسوعى شامل للحج ، ولكن هذه الوقفة – مع ذلك – دراسة متميزة من جوانب أخرى كثيرة لا نعتقد أنها أقل أهمية من الجانبين الفقهى والتاريخى .

إن « حقيقة الحج » حقيقة عظمى بلا ريب ، ولقد نجح المفكر الكبير « وحيد الدين خان » فى تجلية كثير من جوانب هذه الحقيقة بأسلوبه الرائع ، وبثقافته العميقة الأصيلة والعصرية فى سياق واحد .

دار الصحوة

٧ ش السراى ـــ المنيل . ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان . ت : ٦٨٨٠٧١

القاهرة